في رحاب النبي صلى الله عليه وآله وسلم

الشيخ فوزي آل سيف

الطبعة الأولى ١٤٢٦هـ/ ٢٠٠٥م

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين والصلاة

والسلام على محمدٍ وآله الطاهرين

بين يدي القارئ والقارئة

قبل أحد عشر عاما صدر كتاب (رجال حول أهل البيت)، وبعده بثمانية أعوام صدر كتاب (نساء حول أهل البيت)، وعندما أريد إعادة طباعة الكتابين رأى بعض الإخوة تجزئة هذين الكتابين بحيث يصدر كتيب حول كل معصوم، وأصحابه (رجالا ونساء)، فكان هذا الذي بين يديك، وهو يحقق عدة أمور، منها سهولة تداول كل قسم من أقسامه، بخلاف ما إذا كان أربعة مجلدات كبيرة، ومنها أن الفئة المخاطبة به هي الفئة الشابة وهم يقبلون على الكتاب الصغير حجما، أكثر من إقبالهم على كبير الحجم، ومنها أنه من خلال هذا الجمع سيتم الاحاطة بحياة المعصوم من جهات متعددة.. لكل هذه الأمور، تم تنسيق الكتابين بهذا النحو.

مقدمة الطبعة الأولى

ليس الكتاب الذي بين يديك كتاب (رجال) بالمعنى المصطلح. أي أنه لا يبحث ـ فقطـ أحوال الرواة من جهة تحملهم للرواية، و من جهة وثاقتهم و عدمها.. و إنما يحاول هذا الكتاب البحث عن(حياة) هؤلاء الرجال و (مواقفهم) و (إسهاماقم) في حركة الدين والأمة. وهذا الجانب يصعب العثور عليه، عادة، فكتب التاريخ لا تتحدث عن إلاّ ما يرتبط منه بالحروب و الأحداث السياسية الكبرى.و كتب الرجال متخصصة من جهة فليست في متناول العموم لغةً وأسلوباً، و من جهة أخرى فإها تنظر إلى هذه الشخصية أو تلك من زاوية روايتها للحديث.. و صدقها أو عدمه.. فلا تسجل (مواقف) و لا ترصد تاريخاً، إلاّ نادراً.

لذلك غابت مواقف هؤلاء الأبطال، و سيرة حياقم ـ في الغالبـ عن حاضر الأمة.

و هذا الكتاب الذي يتحدث عن مواقف (٦٥) رجلاً من رجال الإسلام في مختلف أدواره، مساهمة أرجو لها أن تنفع المؤمنين في معرفة أولئك الرجال وفي الاقتداء بسيرقم.

فوزي آل سيف

٢٨/محرم /١٤١٤ للهجرة

المقدمة

(١)

من نعم الله على الإنسان أن عرّفه المنازل التي يستطيع الوصول إليها، والدرجات التي يمكنه الارتقاء إليها.

ولولا ذلك..لأصبح الإنسان رهين الحمأ المحموم، يتثاقل إلى الأرض ويتقلب في شهواته مرتداً إلى دركات الهوى و﴿ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ﴾.

تلك المنازل والدرجات التي وصل إليها الإنسان كان أفضل من ملائكة الله الذين ﴿لا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ.

ولم تكن هذه المعرفة مقتصرة على إرشاد الكتب السماوية، بل إضافةً إليها، ودائماً، كان هناك من يطبقها، ويجسدها فيغدو النموذج الحي الذي تصنعه تلك الرسالات، وهكذا كان دائماً ثنائي الكتاب ـ الرسول (والإمام) جوهر الحركة التاريخية.

هكذا كانت الكتب السماوية والأنبياء والمرسلون يخلقون من الأشخاص (معاجز) ومن العاديين من الناس منازل ودرجات.

وبهؤلاء تجسدت القيم في بشر فحلت بذلك مشكلتين:

أولاهما: توهم البعض مثالية القيم الإلهية وخياليتها وإنها لم تأت لكي تتحول إلى واقع، بل تبقى طموحاً محلقاً في سماء التجريد، لا تناله يد التجسيد والواقعية بحال، وبهذا تفرغ القيم والفضائل من محتوى الالتزام، لتبقى ضمن إطار الفكر والمثال.

إنها ـ على هذا الأساس ـ غير قابلة للتطبيق، ومادامت كذلك فلا يصح المطالبة بها على أساس أنها برامج ملزمة.

والأخرى: أن هذه الشخصيات التي جسدت القيم وقفت سداً أمام الاستسلام للواقع والانهيار أمام ضغوطه. وربما لو لم تكن هذه الشخصيات تجسد القيم والفضائل كان المؤمل أن يغدو الخاضعون للشهوات والزاحفون على التراب هم النماذج المعقولة القابلة للإتباع، وأصحاب القيم يبقون في دائرة الشاذ النادر الذي لا يعبأ به، فتصبح سيرتهم مثار تعجب وحياتهم محور تساؤل.

لكن وجود هذه الشخصيات ـ والتي لم تكن قليلةً بحمد الله ـ وضع سداً أمام الانهيار والاستجابة للضغوط الشخصية والاجتماعية والسياسية فأصبح مجسدو القيم هم الأصل، وسواهم الاستثناء الشاذ، حتى وإن كان أولئك قلة بالنسبة لكثرة هؤلاء. وأصبح أهل الحق هم جماعة الأمة وإن قلوا.

(٢)

من الرجال من لا يثبت كونه كذلك، غير قدرته على الإنجاب، ولو عدمت ذلك لكان بعيداً عن الرجولة.

وهناك رجال..(رجال)

رجال في وعيهم، ورجال في مواقفهم، ورجال في جهادهم. من صفاتهم تنتزع صفات الرجولة و تعرف، بكلماتهم تتحرك العزائم الميتة.

و بين أيدينا باقة عطرة من سيرة هؤلاء الرجال، سيرة بعضهم. تبث في الجو رائحة أشباههم و نظائرهم تماماً كما تستدل على رائحة الورد المحمدي برائحة واحدة منه.

هؤلاء (الرجال) اختاروا أن يكونوا (حول أهل البيت) في وقت تسابق غيرهم ليدوروا، حول أهل القصر و السلطة، و أهل الدينار و الدنيا.. اختار (رجالنا) أن يكونوا حول (أهل البيت) و هم يعلمون ما الذي يكلفهم ذلك و لا يختلف فيه أن يكونوا في زمان معاوية أو المنصور أو المتوكل.

التفوا (حول) أهل البيت الذين اذهب الله عنهم الرجس و طهّرهم تطهيراً، فراشات محبة و ولاء هفوا إلى أنوار قدس و معرفة.

لم يكن هذا الالتفاف حول أهل البيت عليهم السلام وسام تفاخر و علامة مباهاة، بل عرفوه مسؤولية، و رسالة ذلك أنه كان يجب عليهم الارتفاع إلى مستوى الأتباع لأهل البيت و هو ـ لعمري ـ منزل متعال..

(٣)

القدوات.. الرجال

هم خلاصة قصص القرآن و تجارب الأمم، ذلك أننا نجد محور هذه القصص ـ عادة ـ الأنبياء و المرسلين، و ما صنع المصلحون في مجتمعاتهم. و كأن القرآن بذلك يريد أن يعرّفنا على مواضع القدوة و التآسي. بل دعانا إلى ذلك.

﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ و بالرغم من أن كثيراً من فلاسفة البشر قد انتبهوا إلى الدور الذي يلعبه الرجال الأبطال في نفوس الناس ـ معاصريهم و المتأخرين ـ حتى شطّ بعضهم إلى تلخيص كل تاريخ الأمة في حياة البطل، إلاّ أنّهم غفلوا عن ناحية ـ أشار القرآن إليها ـ تلك أنهم لم يتصوروا إمكانية تكرار البطل، لأنه يأتي من خلال ظروف خاصة به.. بينما أشار القرآن من خلال عرضه لسير الأنبياء و الأولياء، إلى ضرورة أتباعهم، ودعى إلى

الاقتداء بهم.هذا مع ملاحظة (أنكم لا تقدرون على ذلك)كما يقول أمير المؤمنين عليه السلام ،فإضافة إلى الظروف الموضوعية (زماناً و مكاناً) و التي ترافق صعود البطل مما لا يتكرر وجودها في كل وقت، إضافة لذلك فإن هناك عاملاً أساسياً يجعل تكرار البطل (كاملا) غير ممكن، ما نعتقده في الأنبياء و الأوصياء من أن الله قد أعطاهم ميزات استثنائية تبعاً لما حملهم من مسؤوليات استثنائية كذلك.

ولكن هذا لا يسقط عن الكاهل حمل المسؤولية في الاقتداء «و لكن أعينوني بورع و اجتهاد».

ضمن هذه النظرة تحرك أولئك (الرجال) في طريق أهل البيت حتى صار سلمان «منا أهل البيت» وصار مالك لأمير المؤمنين عليه السلام كما كان هو لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم و حتى مع تغير الظروف يصبح يونس بن عبد الرحمان في زمانه (أي حدود سنة ٢٤٠هـ) كسلمان في زمانه كما يقول الإمام الرضا عليه السلام.

(٤)

اليوم.. حيث تصدر الثقافة لمجتمعاتنا مع علب الشوكولا، و حيث يتناول شبابنا (وجبة) الأفلام الأجنبية يومياً، و يغمضون أعينهم آخر دقائق اليقظة على أبطالها. و ترى البعض من هؤلاء الشباب يحفظون جيداً أسماء الممثلين و أدوارهم. كما يحفظون أسماء (أبطال) الرياضة، و يستطيعون التنبؤ بنتائج الدورات الرياضية و الفائز فيها. وترى البعض من الفتيات يحاكين مغنيات الفيديو كليب.

إن ما يحدث لا يقع في إطار الصدفة و الانفاق، إنّما يؤديه دوراً مرسوماً له.ذلك أن خلق مشاعر مزيفة للفرد من الحب والكراهية. والفرح والألم، كفيل بأن يغطي المشاعر الحقيقية. ويمتصها موجهاً

إياها في غير مواقعها.

فإذا كان يشعر بالألم، فلم يكون ذلك لسوء أحوال مجتمعه السياسية والدينية والثقافية؟! ليستفرغ ذلك الشعور في البكاء من نهاية قصة الحب في الفيلم!!.

وإذا كان يعجب بالبطولة، فلِمَ ينظر إلى تاريخ الإسلام حيث بطولة السيف وشجاعة الموقف؟! لتكن البطولة في نظره ممثلة في الرجل الأبيض وهو يطارد بسلاحه الأوتوماتيكي جموع العزل من الهنود الحمر والزنوج السود!!.

ليستلهم البطولة من رعاة البقر، ومن ضخامة العضلات وإن كانت القيم بائسة!.

وهكذا إذا أراد مثلاً أعلى في الحياة،إذ لابد للشاب أن يحاكي غيره، فلِمَ يحاكي حمزة أو جعفر؟! دعه يقلد (نجوم) الرياضة، ويلبس ملابسهم، أو المغنين ويمشط شعره على طريقتهم!.

لقد صدروا لنا ثقافتهم، وطريقة حياتهم، من خلال أبطالهم والطفل العربي المسلم اليوم يحفظ أسماءهم قبل أن يحفظ جدول الضرب، فضلاً عن أصول الدين!!.

ولذا فإن العودة إلى الذات وإلى بطولات الأمة، يضع العربة في موقعها الصحيح.

(٥)

(حول أهل البيت)

لو تتبعت في التاريخ، الذين كانوا حول أهل البيت والذين كانوا حول أعدائهم..تجد حول أعدائهم، من اتقنوا فن المديح الكاذب من شعراء سوقة، ومتملقين مرتزقة. وتجد أيضاً الأنصار الفسقة،

والعلماء الذين اشتروا بآيات الله ثمناً قليلاً، وأخيراً الجلادين والوزراء الذين يمثلهم عمرو بن العاص بقوله لمعاوية: لو أطعت الله كما أطعتك وجبت لي الجنة.

وفي المقابل تجد حول أهل البيت ألسنة الحق وتراجم الصدق من شعراء العقيدة الذين حملوا أرواحهم على راحاتهم وانطلقوا معلنين موقف الرساليين، فكانت حياتهم ثمناً لكلماتهم، وتجد أيضاً الرجال الذين آووا ونصروا حين خذل غيرهم، وأعطوا الله من أنفسهم حتى يرضى- ولسان حالهم قول زهير بن القين: اللهم إنك تعلم أنه لو كان رضاك في لأن أضع ضبة سيفي في بطني حتى يخرج من ظهري لفعلت.

و(علماء حلماء أبرار أتقياء) لخصوا في أنفسهم مقومات الاتباع والاقتداء بأهل البيت، فإذا قلبت صفحات التاريخ تجد التفوق والتميز شعاراً لهم.. تجد (الكميت) ولا أحد يسبقه في مضمار شعره، والسيد الحميري، سيد الشعراء، وآخرون، حتى لقد قال القائل: وهل الشعر إلاّ عند الشيعة؟ وفي مساحات العقيدة، وقفوا سدً منيعاً أمام نفوذ الثقافات الفاسدة إلى دين الله، نظراء هشام بن الحكم، و زرارة بن أعين وغيرهم.

وميادين الحرب.. هل كانت تزين بغيرهم؟! هل غير حمزة كان فارسها، وهل كان إلاّ قيس بن سعد قد سوَّد على معاوية نهار يومه؟!.

وفي العلم الطبيعي.. من مثل جابر بن حيان خرّيت كيميائها؟! وعلوم اللغة والعروض. هل مثل الخليل العروضي؟ أو ابن السكيت الكوفي.. ونظرائهم وأمثالهم؟!.

ولم يكن كل ذلك، إلاّ نفحة عرف من بستان أهل البيت عليهم السلام أولئك الذين يتصور الشاعر أبو فراس جزءاً من المسافة بين سلوك

أهل البيت وأعدائهم في رائعته الميمية:

خلّوا الفخار لعلاّمين إن سئلوا

يوم السؤال وعمالين إذ علموا

لا يغضبون لغير الله إن غضبوا

ولايضيعون حكم الله إن حكموا

تبدو التلاوة من أبياقم سحراً

ومن بيوتكم المزمار والنغم

الركن والبيت والأستار منزلهم

وزمزم والصفا والحجر والحرم

(٦)

لن تجد على هذه الصفحات تاريخ سلطان، ولا حديثاً عن فتوحات ولن يمرّ البلاط ورجاله إلاّ للضرورة..

لكنك ستجد (رجالاً) قد تجهل بعضهم - عزيزي القارىء- وستتعجب حين لا تجد آخرين من (الصحابة) ومن (التابعين) إذ بالإضافة إلى أن خطة الكتاب ليست تسجيل (كل) أولئك فهذا يطلب في المطولات.. فإنك تجد في هؤلاء - وأمثالهم- حضارة الإسلام، ولب المجتمع الايماني تجد فيهم: الوعي العميق، و الايمان الثابت، والتضحية من أجل المبدأ، و تجد هَمَّ الجماعة، و تقديس الحق.

هؤلاء وإن كانوا مجهولين في أدوارهم و أهميتهم، بينما ارتقى منبر الرسول صلى الله عليه وآله وسلم من يرى الحاكم الأموي أفضل من الرسول..

يبقى هؤلاء المجهولون في الأرض المبعدون عن المواقع المهمّة في المجتمع، المشردون و المقتولون ـ أحياناً ـ يبقون «يزهرون لأهل الأرض كما تزهر النجوم لأهل الأرض».

(٧)

(رجال) ظلموا مرتين

الأولى:أثناء حياتهم، عندما جردّ عليهم أعداؤهم سيف البغي والعدوان فاستأصلوهم، لأنهم (كانوا على هذا الأمر) فأنت تلتقي بسعيد بن جبير في هذا المجال، وبدعبل الخز اعي، أو حرموهم من مواقع لا تصلح إلاّ لهم، كما ترى في حياة خالد بن سعيد بن العاص، وسلّطوا عليهم سيف التفسيق والتكفير كما تجد في نهاية أمر مالك بن نويرة، وهكذا.

وأخرى: مظلوميتهم بعد وفاتهم.. وكان روّاد هذه الظلاّمة، المؤرخون والرجاليون، والمحدثون إذ أن هؤلاء تتبعوا أولياء أهل البيت وشيعتم، فأسقطوهم ـ أو هكذا حاولوا ـ من الاعتبار، فلا تسمع بمنقصة إلاّ ونسبوها لهم.. وكأنهم تأسفوا أن لم يكونوا معاصرين لهم ليعدموا أشخاصهم، فتتبعوا بالاغتيال شخصياتهم.

وبهذا حوّل هؤلاء المؤرخون السلطويون الولاء لأهل البيت، والمشايعة لهم، والاقتداء بمنهجهم إلى (تهمة) وقد كانت أيام الحكومات الظالمة معارضة سياسية، فسبق هؤلاء الرجاليون أولئك الظلمة في هذا الأمر، ولم يكن أولئك يطمعون فيما صنعه هؤلاء.

ها نحن اليوم نشهد جرح هذا الراوي أو ذاك لا لشيء إلاّ لأنه شيعة لأهل البيت عليهم السلام فهاهو ابن حجر العسقلاني يرى! أن من

أسباب الطعن في الراوي.. التشيع!! والـذهبي يعـد زرارة بـن أعـين وهو من حواريي الصادقين عليهما السلام ومن أبطال الفقه والحـديث، يعـده الذهبي (من الضعفاء)!! وسـبب ذلـك: (أنـه يتـرفض)! ولقـد رأى اتباعه لسادات الخلق ترفضاً.. وبعد يقـول ابـن عقـدة أنـه.. حـافظ العصر وكان إليه المنتـهى في قـوة الحفـظ وكثـرة الحـديث.. ومُقـت لتشيعه!!.

وهكذا أصبح التشيع، وهو التطبيق الأفضل لتعـاليم الإسـلام، والاتباع الأكمل لرسول الله، أصبح عنـد هـؤلاء تهمـة سياسـية.. ثم دينية!!.

وأبطالنا هؤلاء كانوا ممن ظلموا مرتين، على يد معاصريهم مـن أعدائهم، وأخرى على يد من جاء بعدهم ممن سار على خط مخالف لأهل البيت عليهم السلام .

(٨)

﴿يَوْمَ نَدْعُو كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَـامِهِمْ﴾، فتـأتي الجمـوع في المحـشر، تلك فئة يقودها فرعون حيث ﴿فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَـاعُوهُ﴾ وتلـك أخرى يقودها المال حيـث (المـال يعـسوب المنـافقين). وتلـك ثالثـة يقودها الجنس إذ أن الشهوة كانت المحرّك الأساسي لهـا في سـعيها في الحياة وكانت تجسيداً كـاملاً لــ: (بـئس عبـد الخميـصة والفـرج)، ورابعة تأتي يقودها ضب!! نعم الضب، ذلك الذي يضرب بـه المثـل فيقال أضلّ من ضب، بايعه عدد ممـن اعتـزل أمـير المـؤمنين عليه السلام منهم عمرو بن حريث.. وهكذا لا يـأتي النـاس أفـراداً بـل يـدعون حسب انتمـائهم العقيـدي والاجتمـاعي والـسياسي، خلـف رايـة أئمتهم وقادتهم سواء كانو طواغيـت أو ضـبابا، أعيانـاً خارجيـة أو أعضاء الجسم!!.

هذه النتيجة الأخروية تابعة للمقدمة الدنيوية.. إذ (أن لكل مأموم إماماً يقتدي به ويستضيء بنور عمله) ولا يمكن أن يبقى المرء بلا إمام، حق أو باطل.

والكثير ممن كانت نهايات أمرهم سيئة، وعواقب حياتهم رديئة، إنما لأنهم قصروا في معرفة الحق، وأسلموا زمام مواقفهم إلى قادة يفقدون الكفاءة والدين.

بينما نجد أحد أسوار عظمة غيرهم من (الرجال) أنهم عينوا — بشكل دقيق ـ القائد الرباني فاتبعوه، فتفجرت في قلوبهم ينابيع الحكمة بتوجيهاته، وتبلورت الطاقات الكامنة بتعليماته، وخرجوا بذلك من ظلمات الوهم إلى نور الحقيقة، حتى كادوا أن يكونوا من الفقه أنبياء.

(٩)

من كانوا؟! وما الذي ميزهم عن غيرهم؟!

إن استعراضاً خاطفاً لما قيل فيهم، من مؤيديهم ومن مخالفيهم يجعلنا على معرفة بتلك الصفات والميزات التي انفردوا بها.

فالله سبحانه وتعالى يقول عنهم ﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعاً سُجَّداً يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَاناً سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْراً عَظِيماً﴾

ورسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يصفهم بأنهم: أمنة لأمته كما هو صلى الله عليه وآله وسلم أمنة لهم، وكما يدفع به عنهم العذاب، يدفع بهم عن أمته الوعيد.

وأمير المؤمنين يمدحهم في نهج البلاغة بخطبة مفصلة منها.. أنهم:

«أهل الفضائل: منطقهم الصواب وملبسهم الاقتصاد، ومشيهم التواضع، غضوا أبصارهم عمّا حرّم الله عليهم ووقفوا أسماعهم على العلم النافع لما نزلت منهم أنفسهم في البلاء كالتي نزلت منهم في الرخاء، ولولا الأجل الذي كتب الله عليهم لم تستقر أرواحهم في أنفسهم طرفة عين أبداً شوقاً إلى الثواب وخوفاً من العقاب، عظم الخالق في أعينهم فصغر ما دونه في أعينهم».

وهكذا الحسين عليه السلام حيث يصف هؤلاء بأنه لا يعلم أصحاباً أوفى ولا خيراً من أصحابه..

ولقد عرف هذه الصفات مخالفوهم وأعداؤهم، فقد قال ذلك القرشي عنهم و هم مجتمعون حول الرسول في بدر: ليس لهم كمين و لا مدد و لكن نواضح يثرب حملت الموت الناقع، أما تروهم خرساً لا يتكلمون يتلمظون تلمظ الأفاعي مالهم ملجأ إلاّ سيوفهم، و ما أراهم يولون حتى يقتلوا و لا يقتلون حتى يقتلوا بعددهم.

و هذا معاوية بن أبي سفيان لا يخفي غضبه من الأنصار الذين قتلوا من أصحابه الكثير، الكثير حتى أنه لا يسمع بأحد مقتول إلا ويعلم أن الأنصار قتلوه، و لا يخفي أن نساء خزاعة لو قدرت على قتاله لفعلت قبل رجالها.. و يتعجب من وفاء أصحاب أمير المؤمنين له بعد شهادته رغم الترغيب و الترهيب..«لوفاؤكم له بعد مماته أعجب من طاعتكم له في حياته».

و عندما تبرز تلك الثلّة المؤمنة في كربلاء لقتال الجاهلية الأموية، فتثخن فيهم القتل المبارزة، فينادي القائد الأموي عمرو بن الحجاج الزبيدي بالامتناع عن هذا النوع من القتال قائلا:

ـ ويلكم يا حمقاء أتدرون من تقاتلون؟! إنما تقاتلون فرسان المصر و أهل البصائر و قوماً مستميتين..

«إن فرسان المصر في مجتمع محارب و هو ما كانه المجتمع العربي

الإسلامي في ذلك الحين تعبير يعني الشخصيات البارزة في المجتمع فقد كان التفوق في الحقل العسكري أحد أفضل السبل لتبوء مركز اجتماعي مرموق يبعث على الاحترام بل لقد كانت هذه الصفة خليقة بأن تجعل يغضون النظر عما قد يكون في الرجل من خلال معيبة في نظر المجتمع.

و (أهل البصائر) تعبير يعنى به الواعون الذين يتخذون مواقفهم عن قناعات تتصل بالمبدأ الإسلامي و لا تتصل بالاعتبارات النفعية.

و إذن فنحن أمام نوع من الشخصيات تمثل النخبة الواعية للإسلام في المجتمع الإسلامي في ذلك الحين و هي تستمد، تفردها و تفوقها من فضائلها الشخصية و من وعيها الإسلامي و التزامها بمواقفها المبدئية..»[1].

وفي موقع آخر يقول أحد رجال عمر بن سعد عندما قيل له:ـ ويحك أقتلتم ذرية رسول الله ﷺ؟!.

فقال: ثارت علينا عصابة أيديها في مقابض سيوفها كالأسود الضارية تحطم الأسود يميناً وشمالاً وتلقي أنفسها على الموت لا تقبل الأمان ولا ترغب في المال ولا يحول حائل بينها وبين الورود على حياض المنية أو الاستيلاء على الملك فلو كففنا عنها رويداً لأتت على العسكر بجذافيره، فما كنّا فاعلين؟!.

وهكذا عندما يحضر المهدي العباسي (حاضراً) الثائر السجين وقد طعن في السن وبعد أن شتمه واتهمه بالزنا، وهو الثائر على ظلم العباسيين مع عيسى بنٍ زيد وكان قد قيده، فضربه عدة مرات.. وحاضر يسخر منه قائلا:

---

(١)أنصار الحسين١٦٨.

ـ إنك لشديد أيّد حين قويت على شيخ مثلي تضربه، لا يقدر على المنع من نفسه ولا الانتصار لها.

انهزم المهدي وهو الحاكم أمام هذا المنطق القوي والثبات العجيب، ولما صرف حاضراً من مجلسه قال للربيع وزيره:

ـ أما ترى قلّة خوفه وشدّة قلبه؟ هكذا يكون والله أهل البصائر.

(١٠)

ولا عيب فيهم غير أن سيوفهم

بهن فلول من قراع الكتائب

تلك النجوم الزاهرة لو لم تكن قرب شموس قادتهم من أهل البيت لطغى نورها على كل شيء، فخرهم أنهم عاشوا قرب الأئمة، وتحت ظلّهم، فهل كان يتوقع أن ينظر الناس إلى فضائل حمزة، وقد طلع عليهم كوكب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ؟ أم يستضيئون بنجم زرارة وشمس الصادق عليه السلام في رائعة النهار؟.

وهكذا لا عيب فيهم! سوى أنهم كانوا قرب أهل البيت عليهم السلام ، فتضاءلت صفاتهم وشخصياتهم ـ وهي كبيرة ـ أمام عظمة أهل البيت.

ولو فرضنا أنهم ـ بهذه الشخصيات ـ كانوا جنب نظرائهم من سائر الناس، لبان تفوقهم، بل أنك اليوم وأنت تنظر إلى سيرة حياتهم لا تستطيع أن تضع إلى جنبهم من معاصريهم أحداً ممن لم يتأثر بمدرسة أهل البيت.

هل تجد كحمزة أسد الله وأسد رسوله؟!.

أم كصعصعة بن صوحان الخطيب المتدفق؟.

أم كسعيد بن جبير سيد الفقهاء؟!.

أم...؟.

وتتبع قافلة النور.

والذي حدث أن كثيرا ممن جاؤوا تتبعوا سيرة أهل البيت عليهم السلام تلك السيرة اللامتناهية في العلم، والصفات الأخلاقية المتميزة، وحسناً فعلوا، فقد ارتشفوا من حوض كوثرهم، ما استطاعوا.

ولكن بقي في هذه الأثناء.. سيرة أصحابهم ومن كان حولهم، فقد وقعت هذه الشخصيات في حياتها تحت ظلال أهل البيت أثناء حياتهم، وبعد وفاتهم أيضاً لم يلقوا الاهتمام المطلوب.

إن رجلاً مثل أبي حنيفة النعمان يصبح محور اهتمام فرقة غير قليلة من المسلمين ـ أتباعه ـ فتؤخذ فتواه وتشرح أفكاره، وتؤرخ العديد من الكتب حياته بينما لا يزيد شيئا على مستوى مؤمن الطاق محمد بن النعمان رضوان الله عليه الذي يبقى ذكره وتاريخ حياته ضائعاً في الكتب الرجالية بين ألوف الرواة ورجال المسانيد. وأن مثل أبي يوسف يصبح قاضي القضاة في حياته وتدرس شخصيته بعديد من الكتب بعد وفاته، بينما تجد عالماً أفضل منه هو محمد بن مسلم الطائفي، يقصى في حياته عن مواقع الإدارة والسلطة وهذا طبيعي من أربابها، إذ الإقصاء أدنى ضرائب الانتماء الرسالي، ويبقى مجهولاً بعد وفاته، إلاّ من مراجعة الفقهاء والمحدثين لرواياته عن المعصومين عليهم السلام .

(١١)

سوف تجد في سيرة هؤلاء الرجال تاريخ الإسلام في مراحله المختلفة، وليس ذلك فقط لأن هؤلاء الرجال في كنف أهل البيت، وشهدوا معهم مشاهدهم، ومعاركهم، وإنما – وأيضاً – لكونهم

صناع أحداث ذلك التاريخ.

فأنت تجد في سيرة أبي طالب صورة عن بداية الرسول دعوته في مكة المكرمة، وجهاده وفي سيرة حمزة ستجد بالضرورة شرحاً عن واقعتي بدر الكبرى وأحد، وهكذا في سيرة حذيفة بن اليمان صورة عن معركة الخندق.

وهكذا الأمر في تطور الأحداث بعد وفاة رسول الله ﷺ، فعند الحديث عن حياة مالك بن نويرة اليربوعي ستلتقي بتحليل تاريخي لما جرى بعد وفاة الرسول ﷺ وما فعله خالد بن الوليد، ويكتمل ذلك التحليل بالنظر إلى سيرة خالد بن سعيد بن العاص، ولما كان محمد ابن أبي بكر ربيب أمير المؤمنين علي عليه السلام في معمعة الثورة التي قام بها المسلمون ضد الخليفة الثالث، كان لابد من التعرض إلى خلفيات ذلك الحدث بشكل تفصيلي، عند الحديث عن سيرة محمد ابن أبي بكر.

وبالرغم من قصر المدة التي حكم فيها أمير المؤمنين عليه السلام، إلا أنها كانت حبلى بالأحداث والمشاكل ومعارك التمرّد التي قام بها الناكثون والقاسطون والمارقون في الجمل وصفين والنهروان، تلك المعارك التي بقدر ما أبرزت سوءات أعداء أمير المؤمنين، أظهرت فداء أصحابه، وإيثارهم، تجد تاريخاً لتلك المعارك من خلال بطولات رجالها أمثال صعصعة بن صوحان العبدي.

وعندما تقرأ سيرة مسلم بن عقيل تجد فيها شرحاً لوضعية المجتمع الكوفي وكيف استطاع ابن زياد السيطرة عليه بعد أن جاء من البصرة، كما يظهر الدور السيء الذي مارسه الطابور الخامس الذي يعمد إلى الثورة وقد آن أوانها فيجهضها ويقضي على الجهود التي بذلت لإنجاحها.. وتتعرف من خلال ذلك على مقدمات الثورة الحسينية التي ستلتقي مع عدد من أبطالها.. تجد بينهم الحر الرياحي

الذي خرج من قفص الاستعباد إلى حرية الاستشهاد، واستطاع أن يرسم لنفسه مجداً في الخالدين، وتجد بينهم جون مولى أبي ذرّ الغفاري، الذي أسقط (أحرار) المعسكر الآخر نسباًو(عبيده) موقفاً أمام الحجة البالغة يوم القيامة، وتلتقي أيضاً بحبيب بن مظاهر الأسدي الشيخ الكهل الذي يقاتل بروح الشباب وحماس الأحداث.

وأخيراً تلتقي مع قمر العشيرة أبي الفضل العباس، وتلحظ التنوع في هؤلاء الأصحاب فمن(مولى) إلى (شيخ عشيرة) ومن (طاعن في السن) إلى (شاب هاشمي) وهكذا.. لتقرأ في حياتهم سيرة البطولة والشهادة وواقعة كربلاء.

ولا أطيل عليك عزيزي القارىء.. سأتركك تتعرف على التاريخ من خلال أبطاله.

وفي الختام

وأخيراً لعلّك تسأل عزيزي القارىء: على أي أساس تم انتخاب هؤلاء؟! هل بسبب كونهم حواريين للمعصومين؟! أو لأن أدوارهم التاريخية كانت على غاية من الأهمية؟! أو غير ذلك..

وفي الواقع إن الأساس لانتخابهم كان لأنهم (رجال) ولأنهم (حول أهل البيت) ثم تأتي بقية العوامل كأن يكون للشخص دور تاريخي، سواء في ساحة المعركة، أو ميدان العلم أو في مضمار المواقف الثورية الشجاعة، أو في مستبق الانتماء والولاء لخط الرسالة والإمامة. وربما تجد في مجموع حياة الرجال الذين تم انتخابهم صورة ما عن حياة المعصوم الذين تحلقوا حوله.

لا يفوتني هنا أن أنبه القارئ المحترم إلى أن بعض هؤلاء الرجال، عاصروا أكثر من معصوم وأخذوا عنه ورووا حديثه.. في تاريخنا لحياة هؤلاء كنا غير مقيدين بأن ننسبهم لحياة المعصوم الأول أو الأخير،

بل ربما تحدثنا عنهم كأصحاب للمتوسط، وإن كنا لم نهمل الفصل الأخير من حياتهم. فمثلاً عبد الله بن جعفر الطيار رأى النبي صلى الله عليه وآله وسلم وعاش في بيت أمير المؤمنين عليه السلام و شهد مواقف الحسن عليه السلام، و قدم ابنيه في ركاب الحسين شهداء، و توفي أيام زين العابدين عليه السلام. فهو يحسب من أصحابهم جميعاً إلا أننا أرّخنا حياته كأحد رجال الإمام الحسن عليه السلام و هكذا الحال في زرارة بن أعين الذي تتلمذ على يد الباقر و الصادق عليهما السلام و يونس بن عبد الرحمان الذي لقي ثلاثة من الأئمة.

موجز عن حياة رسول الله

محمّد بن عبد الله ﷺ أبو القاسم (المصطفى)

ولد رسول الله ﷺ في عام الفيل أي سنة (٥٧٠) للميلاد، و قد توفي والده عبد الله قبل ولادته و توفي رسول الله ﷺ سنة (١١) للهجرة.

نشأ في قبيلة بني سعد، حيث احتضنته حليمة السعدية لإرضاعه و بقي هناك لمدة خمس سنوات، عاد بعدها إلى مكّة، و ذهب مع أمّه آمنة لزيارة قبر والده، و في طريق العودة فقد أمّه حيث توفيت في منطقة الأبواء.

كفله جدّه عبد المطلب، و كان يرى فيه النبي الذي سيبعث، إذ كان النبي و آباؤه على الحنيفية و في الثامنة من عمر الرسول توفي جده عبد المطلب، فكفله بعدها عمه أبو طالب.

كان (محمد الأمين) يعمل في رعي الغنم، ثم عمل بالتجارة، حيث طلبت منه خديجة بنت خويلد أن يعمل بأموالها على طريقة ما يعرف اليوم بالمضاربة. و كانت تلك الرحلة التجارية له للشام مربحة كثيراً لخديجة و له.. و لما عاد غلمان خديجة، وأخبروها بما رأوا منه من كرامات، وصفات فاضلة فزاد عزم خديجة على الاقتران به، وأرسلت من يذكرها عنده، و تم الزواج بعدئذ. في حين في حين أنها رفضت عروض القرشيين الأغنياء.

في سن الأربعين من عمره الشريف، وحين كان يتعبد الله ـ على

عادته ـ في غار حراء في مكة المكرمة، نزل عليه الوحي، بعد سلسلة مقدمات تمت لمدة طويلة، و لم يفاجأ ببعثه، كما يدعي البعض من المؤرخين، و كان نزول الأمين جبرئيل عليه بأول آيات القرآن الكريم إيذاناً ببعثه للناس جميعا.

بدأ الرسول ﷺ يدعو الناس في مكة المكرمة سرّاً و كان أول من آمن به علي بن أبي طالب وخديجة زوجته ثم كثر المؤمنون بدعوته، و استمر ذلك لمدة ثلاث سنوات.

بعد هذه السنوات أمر الرسول بالإنذار العام و الإعراض عن المشركين، فنادى في قريش بعد أن صعد على جبل الصفا واصباحاه. فاجتمعوا إليه، فسألهم: أرأيتم لو أخبرتكم أن خيلا قد دهمتكم وراء هذا السفح أكنتم مصدقي؟! قالوا: بلى، ما جربنا عليك كذبا.. فقال: فإني لكم نذير بين يدي عذاب أليم..

و مع هذه المرحلة تصاعد الأذى و العذاب من قبل القرشيين للمؤمنين خصوصا من كان منهم لا يملك دفعاً كالعبيد و الفقراء.

شددت قريش حصارها الاقتصادي و مقاطعتها الاجتماعية للرسول و المؤمنين به بعدما فشلت في ردع المؤمنين عن الالتزام بدعوة الرسول، و فشلت في الضغط على الرسول أو ترغيبه، فحوصر المسلمون في شعب أبي طالب، و اشتدّ بهم الضر، حتى لقد أكلوا أوراق الشجر بسبب قلة الطعام.

في السنة الثامنة للبعثة توفي أبو طالب كافل النبي و حاميه، و بعد أشهر توفيت زوجته السيدة خديجة، فكان لتلك أعظم الأثر في نفس النبي ﷺ وسمي ذلك العام: عام الحزن. و بعد وفاة أبي طالب لم يجد النبي ﷺ من يحميه في مكة فخرج إلى الطائف ليدعو أهلها. و لكنه لم يجد منهم سوى التكذيب و الأذى.

هاجر النبي ﷺ بعد ذلك إلى المدينة، بينما بات أمير المؤمنين على فراشه. وكان نائبا عنه في أداء الودائع و أخبر القرشيين أنه خارج للمدينة بعد ثلاثة أيام. و كان أعنف تحد تتلقاه قريش من قبل رجل واحد حيث سيخرج بالرغم من إرادها.

في المدينة بدأ الرسول ﷺ خطواته لإنشاء المجتمع الإسلامي القوي القائم على أساس الدين، فآخى بين المسلمين، و بدأ يجهز السرايا لاستنقاذ أموال المسلمين من قوافل قريش، و لتأديب الأعراب أطراف المدينة..

على أثر مطاردة سرية للمسلمين لقافلة تجارية لقريش عزمت قريش على حرب المسلمين، فجهزت جيشا قوامه قرابة الألف مقاتل، بينما جهز المسلمون جيشا قوامه (٣١٣) مقاتلا، و اشتبك الجيشان في (بدر)، حيث الغلبة لله و لرسوله، و غادر المشركون مخلفين وراءهم جثث (٧٠) قتيلا، و عاد المسلمون بيدهم سبعين أسيرا..

لم تبلع قريش لقمة هزيمتها، حتى عادت مرة أخرى و جمعت مقاتليها لتشتبك مع المسلمين في (أحد) و كانت رياح النصر تجري لصالح المسلمين، إلاّ أن الرماة فوق الجبل من المسلمين، عصوا أمر الرسول فتركوا مواقعهم و استغل المشركون الفرصة، وانقلبت الكفة آنئذ، فهزم المسلمون. وقتل في هذه المعركة عدد من خلّص أصحاب الرسول و شجعانهم.

استمرت المواجهات بين المسلمين وبين أعدائهم، فقد قام الرسول ﷺ بإخراج اليهود من المدينة، ولغرض إنهاء الوجود الإسلامي فقد تحالفت قريش مع سائر العرب، ومن ورائهم اليهود ضد المسلمين، وتحزبوا لغزو المدينة، فكانت معركة الخندق، التي انتهت بنصر المسلمين، ثم كانت معركة (خيبر) التي أدّت إلى إخراج

شوكة اليهود من جسم المدينة. وبعدها كانت غزوة مؤتة ضد جيوش الروم.

أخبر الرسول المسلمين بالاستعداد للذهاب إلى مكة، وقد أخفى خروجه لكيلا يصل الخبر إلى أهل مكة فيتهيئوا لذلك.. وبالفعل فقد فاجأ الرسول ﷺ أهل مكة حيث لم يستطيعوا المواجهة، واستطاع رسول الله أن يدخل مع المسلمين مكة سلماً، وأن يفتحها، ويقضي بذلك على الموقع الديني للوثنية في الجزيرة العربية. وأعلن عن خطوات كانت بمثابة تفريغ قريش من عناصر مقاومتها حينما أعلن الأمان العام لأهل مكة.

بعد فتح مكة خضعت الجزيرة العربية للإسلام، وبدأ الرسول ﷺ، يبعث بموفديه إلى سائر البلاد، داعياً زعماءها إلى الإيمان برسالة الإسلام،

في السنة العاشرة من هجرة النبي ﷺ وحينما كان النبي عائداً من الحج أوقف الجميع عند غدير خم، ونصب (علي بن أبي طالب) ولياً للمؤمنين، ووصياً، وخليفة له، وقد شهد ذلك الحدث عشرات الألوف من المسلمين الحجاج.

في السنة الحادية عشرة، لبّى رسول الله ﷺ نداء ربّه لقربه وتوفي في الثامن والعشرين من صفر، ودفن في المدينة المنورة.

حمزة بن عبد المطلب

(أبو عمارة) وأبو يعلى

شهيد أحد سنة ٣ هـ / العمر ٥٩ سنة

«ما من يوم أشدّ على رسول الله من يوم أحد قتل فيه عمّه حمزة بن عبد المطلب أسد الله و أسد رسوله...»

الإمام السجاد عليه السلام

عاد من الصحراء ممتطياً صهوة فرسه.. يملأ العين إعجاباً والنفس إكباراً، والقلب هيبة، هذا الكهل الشجاع الذي تتحدث قريش عن رجولته وفروسيته.

عاد، تملأ الثقة إهابه، وقد توشح قوسه بعد رحلة قنص له، وفي الطريق تستوقفه مولاة لعبد الله بن جدعان:

ـ يا أبا عمارة!! يا أبا عمارة..

لو رأيت ما لقي ابن أخيك من أبي الحكم (أبي جهل) آنفاً قبيل وجده هنا فإذاه وشتمه وبلغ منه ما يكره، ثم انصرف عنه ولم يكلمه محمد.

تغيرت الدنيا في عينيه، أصبح يراها حمراء من الغضب، وزال ذلك الصفاء والانطلاق الذي عاد به من الصحراء، استنفرت فيه مروءته كل رجولته، لقد رأى أن تجاوز قريش بلغ حداً لا يحتمل، وأسرع في مسيره.. كان من عادته إذا رأى جماعة من الناس يقف

ويسلّم عليهم ويطايبهم بالحديث، ولكنه هذه المرة لا يكاد يبصر من الغضب شيئاً، أنه يبحث عن أبي جهل لتأديبه.

ودخل المسجد، وكان أبو جهل جالساً مع نفر من قومه، وكان وجه حمزة ينذر بما لا يسرّهم، إلاّ أن خوفهم منه جمّدهم في أماكنهم فلم يستطع أحد منهم أن يتحرك من موضعه.

وتقدم.. وتقدم، ودون أن يسلم وقف بحذاء أبي جهل ورفع القوس، وأهوى بكل قوته على رأس أبي جهل، وانبعثت الدماء من رأسه.

لم تكن تلك الضربة قد أصابت رأس أبي جهل فقط، بل أسالت الدماء من رأس قريش. ولذلك قام من بني مخزوم من كان حاضراً ليعينوا أبا جهل وليردّوا هذه الإهانة عن قريش:

ـ ما نراك يا حمزة إلاّ قد صبأت؟.

وما يمنعني منه وقد استبان لي منه ذلك.. قال حمزة.. وأطلق قنبلته: وأنا أشهد أنه رسول لله وأن الذي يقول حق فو الله لا أنزع فامنعوني إن كنتم صادقين.

نسي الجميع شجة أبي جهل، والإهانة الكبرى التي لحقت به، وظلوا يرددون.. أحمزة يسلم؟! صياد الأسود، الفاتك الشجاع يصبح مع العبيد والضعفاء؟! حمزة.. أعز رجال قريش وأكثرها فتوة يتبع ابن أخيه لينكس رأسه راكعاً وساجداً؟!

❁❁❁

ترى هل كان إسلامه صدفة؟ أم مجرد موقف أنشأته الحمية؟ وهل كان سيبقى مع جاهلية قريش لو لم يكن هذا الموقف؟! لا أظن ذلك، بل أعتقد بعدمه.

إن المواقف ـ خصوصاً العقيدية منها ـ لا تأتي من دون مخاض،

لكن لما كان مخاضها في داخل الضمير، فإنه يبقى مجهولاً للآخرين، ولكنه يستمر إلى أن يستقر على ساحل، ويأتي ظرف خارجي في هذه الأثناء، كالذي حدث لحمزة، فيخرج ما أضمرته نفسه، ويكون مصدر استغراب لمن يتصوره خطوة مفاجئة.

حمزة الذي ينشأ في كنف أبيه عبد المطلب والذي كان على ملة إبراهيم وكان يقرأ الكتب ويوصي بنيه بنصرة النبي الذي سيخرج من صلبه، حمزة الذي يعيش مع ابن أخيه محمد ﷺ، إذ كان من أترابه سناً، فلا يرى منه خطلة في قول ولا زلة في فعل، ها هو يدعو إلى عبادة الله الواحد الأحد، وقد آمن به أخوه أبو طالب وابناه علي وجعفر فما الذي يمنعه؟..

أليس هو القائل أنه حين يذهب في عمق الصحراء، يدرك أن هذا الكون الرحيب لا يمكن أن تحيط به أصنام منحوتة من الحجر والنحاس معلقة في جوف الكعبة.. إن الصحراء بما فيها من صفاء وسكون تمنحه القدرة على التأمل الإيماني في المبدأ والمعاد مفعماً بالإيمان بخالق لهذا الكون أقوى وأقدر وأحكم وأكبر مما يتصوره هؤلاء الجاهليون.

من حينه توجه إلى رسول الله ﷺ، الذي أكمل مسيرة الطمأنينة في نفسه، فذكره ووعظه وبشره فقال:

ـ أشهد أنك صادق شهادة الصدق العارف فأظهر يا ابن أخي دينك فو الله ما أحب أنّ لي ما أظلّته السماء وأني على ديني الأول. وأنشأ:

حمدت الله حين هدى فؤادي ... إلى الإسلام والدين الحنيف

لدين جاء من رب عزيز ... خبير بالعباد بهم لطيف

إذا تليت رسائله علينا تحدر دمع ذي اللب الحصيف
رسائل جاء أحمد من هداها بآياتمبينة الحروف
وأحمد مصطفى فينا مطاع فلا تغشوه بالقول العنيف
فلا والله نسلمه لقوم ولما نقض فيهم بالسيوف
وتترك منهم قتلى تباع عليها الطير كالورد العكوف[1]

ولما أسلم حمزة عرفت قريش أن رسول الله قد عزّ وامتنع وأن حمزة سيمنعه فكفّوا عن بعض ما كانوا ينالون منه.

❁❁❁

ـ ما هم إلا أكلة رأس لو بعثنا إليهم عبيدنا لأخذوهم أخذا في اليد.. و صفق أبو جهل يديه بجذل و هو ينظر إلى قلّة عدد المسلمين في بدر.. و انطلق عمير بن وهب الجمحي على فرس له ثم رجع:

ـ ليس لهم كمين و لا مدد.. و لكن نواضح يثرب قد حملت الموت الناقع، أما ترونهم خرساً لا يتكلمون، يتلمظون تلمظ الأفاعي ما لهم ملجأ إلا سيوفهم، و ما أراهم يولون حتى يقتلوا و لا يقتلون حتى يقتلوا بعددهم فارتأوا رأيكم.

غضب أبو جهل من كلامه، و قال: كذبت و جبنت.

وذهبت أدراج الرياح محاولات عتبة بن ربيعة في منع الحرب:

يا معشر قريش أطيعوني اليوم و اعصوني الدهر إن محمداً له إلّ و ذمّة و هو ابن عمكم فخلوه والعرب، فإن يكن صادقاً فأنتم أعلى

---

(١)سيرة ابن اسحاق١٧٣.

عينا به و إن يكن كاذبا كفتكم ذؤبان العرب أمره.

ورد أبو جهل مرّة أخرى، و قد طمع أن يحوز المسلمين باليد كما قال و على يد عبيده: جبنت و انتفخ سحرك!!.

كانت أول مواجهة عسكريّة بهذا المستوى بين المسلمين و الكفار و كان مطلع القصيدة فيها ضربة من حمزة أطنّ بها قدم الأسود المخزومي الذي (عاهد الله!) أن يشرب من الحوض أو يهدمنه أو يموت دونه!!

وقطعت هذه الضربة الهاشمية عليه الطريق، كما قطعت ساقه، و لما زحف اتبعه حمزة بأخرى كانت فيها نفسه.

المجد اليوم لبني هاشم، فسيدهم رسول الله ﷺ يقود المعركة و يوجهها، و حمزة و علي يحصدان الرؤوس.

كانت قريش تحتاج إلى أن ترفع من معنوياتها، فقد كانت نواضح يثرب تحمل الموت، و ها هو الأسود المخزومي قد جرب حظه مع هذا الموت، و بدون ذلك فإن قريشا ستنهزم بدون قتال. لذلك برز منها كبار فرسانها: عتبة بن ربيعة، و أخوه شيبة، و ولده الوليد بن عتبة و طلبوا المبارزة، و لما خرج إليهم ثلاثة من الأنصار ـ قالوا:

ـ ما لنا بكم حاجة..

ـ يا محمد أخرج لنا أكفاءنا من قومنا.

ـ قم يا عبيدة بن الحارث، قم يا حمزة، قم يا علي.

ـ أكفاء كرام.

وبرز لعتبة عبيدة و هو أسن الثلاثة، و لشيبة حمزة، و علي للوليد..

فلم يمهل عليٌّ الوليد أن ضربه على رأسه حتى أوصل السيف

لأضراسه. و كذلك قتل حمزة شيبة، بينما اختلف عبيدة و عتبة ضربتين أثبت كل واحد منهما صاحبه. فعطف حمزة و علي على عتبة فأجهزا عليه.

و أمر الرسول بالالتحام، وأخذ كفّاً من الحصى فرماه بوجوههم قائلاً: شدوا.. ﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى﴾ و كان سيف حمزة يحصد في الرؤوس..

أراد أبو جهل أخذ المسلمين باليد بواسطة عبيدة، تصورهم أكلة رأس.. وأراد الله أن يذيقه الخزي على يد واحد من أضعف المسلمين لنسمع ما يقول عبد الله بن مسعود.

ـ انتهيت إلى أبي جهل وهو يتشحط بدمه، فقلت: الحمد لله الذي أخزاك.. فرفع رأسه وقال: إنما أخزى الله عبد ابن عبد ويلك لمن الدبرة؟!.

قلت: لله ولرسوله.. وإني قاتلك.. و وضعت رجلي على عنقه.

فقال: ارتقيت مرتقى صعباً يا رويعي[1] الغنم أما أنه ليس شيء أشد من قتلك إياي في هذا اليوم ألا يكون تولى قتلي رجل من المطلبيين أو رجل من الأحلاف.

فاقتلعت بيضة كانت على رأسه فقتلته وأخذت رأسه وجئت إلى رسول الله ﷺ وقلت:

ـ يا رسول الله.. البشرى هذا رأس أبي جهل بن هشام فسجد لله شكراً.

وعاد المسلمون إلى المدينة فرحين بنصر الله، وقد قتلوا سادة قريش وأسروا سبعين من مقاتليها، وغنموا السلاح والكراع،

---

(١) تصغير راعي.

وغنموا خيراً من ذلك القوة المعنوية والنصر الداخلي.

بينما فرّ من استطاع من القرشيين لا يلوي على شيء.. يعثر تارة في أجساد قادته وأخرى في أذيال خيبته، و وصلوا إلى مكة التي أقامت عزاءً عاماً صامتاً، فمن جهة دخل اليتم والثكل كل بيت قرشي فكانت الهزيمة والمصيبة في كل بيت، ومن جهة أخرى كانوا يريدون الانتقام والبكاء على القتلى والنوح من الممكن أن يمتص الغضب والثأر، لذلك حرموا البكاء على القتلى وبدؤوا يستعدون لمعركة الثأر.

وإذا كان أبو جهل مسعر الحرب الأولى، فإن (هند) كانت هذه المرة، لولب الحركة العسكرية، لقد قتل في بدر أبوها عتبة، وعمها شيبة وأخوها الوليد، وكلهم قتلوا بيد بني هاشم: عبيدة وعلي وحمزة.

وكان الهدف قتل واحد من الثلاثة: الرسول ﷺ أو حمزة، أو علي، لهذا وعدت (وحشياً) وهو عبد أسود يقذف بالحربة على طريقة الأحباش بما لا يخطر على باله، حريته، وعقودها و قلائدها من الذهب.. إن قتل أحد الثلاثة.

ولعقت قريش جراحها، ولملمت قوتها وجمعت إليها الأحابيش وخرجت في ثلاثة آلاف معهم مائتا فرس، ويقود هذا الجمع أبو سفيان، بينما كان على ميمنتهم خالد بن الوليد وعلى الميسرة عكرمة ابن أبي جهل.

بينما خرج الرسول ﷺ معه سبعمائة رجل.

ولما التقى الناس ودنا بعضهم من بعض قامت هند بنت عتبة (زوجة أبي سفيان) في النسوة اللاتي معها، وأخذن الدفوف يضربن بها خلف الرجال ويحرضنهم فقالت هند فيما تقول:

نحـــــن بنـــــات طـــــارق إن تقبلـــــوا نعـــــانق

ونفـــــرش النمـــــارق أو تـــــدبروا نفـــــارق

فراق غير وامق

فاقتتل الناس حتى حميت الحـرب وقاتـل أبـو دجانـة سمـاك بـن خرشة حتى أمعن في العدو، وحمزة وعلي بن أبي طالب في رجال مـن المسلمين فأنزل الله نصره وصدقهم وعده فحسوهم بالـسيف حـتى كشفوهم وكانت الهزيمة لا يشك فيها[1]...

وأخذ المسلمون في أثر المشركين يضربون وجـوههم وأدبـارهم وأولئك ينـهزمون تـاركين سـيوفهم وخيـولهم ومتـاعهم. وتـسابق المسلمون لجمع الغنائم، ومالت الرماة تاركين الجبـل مخلفـين أوامـر الرسول ﷺ وراء ظهورهم، منحازين عن قائدهم عبد الله بن جبير الذي حاول عبثاً أن يثنيهم..

ساعة.. إذ تغير الموقف واستطاع خالد بن الوليد بمن معـه مـن الخيل أن يحتلوا مواقع المسلمين في الجبـل. ويبـاغتوهم مـن الخلـف وكانت فرصة كافية لجيش قريش أن يلتئموا من جديد.

وفر من المسلمين من فرّ ومنهم عثمان بـن عفـان حـتى بلغـوا (الجلعب) جبلاً بناحية المدينة فأقاموا به ثلاثـة أيـام!! ثم رجعـوا إلى رسول الله فقال لهم: لقد ذهبتم فيها عريضة[2]!!

ولم يبق مع رسول الله غير عشرة..

كل هذا ووحشي يترقب، فرصة تمكنـه مـن أحـد أهدافـه أمـا

(١)سيرة ابن اسحاق.
(٢)المصدر : ٣٣٢ والطبري ٢.

الرسول: فكان محاطاً بأصحابه وأما علي فكثير الالتفاف، بقي حمزة، الذي كان لا يمر بأحد إلاّ قطعه بسيفه.. لنسمع منه بقية ما حدث.

«والله إني لأنظر إلى حمزة يهد الناس بسيفه ما يليق (يبقي) شيئاً مثل الجمل الأورق إذ تقدمني إليه سباع بن عبد العزى فقال له حمزة: هلّم إليّ يا ابن مقطعة البظور فضربه فكأن ما أخطأ رأسه وهزت حربتي حتى إذا رضيت منها ذففتها عليه حتى وقعت في ثنته[1] حتى خرجت من بين رجليه، وأقبل فقلب فأمهلته حتى إذا مات جئت إليه فأخذت حربتي وتنحيت إلى العسكر ولم يكن لي بشيء حاجة غيره[2].

كانت الهزيمة مؤلمة، لأنها لم تكن لتحصل لولا مخالفة الرماة أوامر الرسول، وكانت مؤلمة أكثر لأنها أفقدت الرسول، أسد الله وأسد رسوله حمزة سيد الشهداء.. وماذا يضر أليس حمزة من أولئك الذين خلقوا للبطولة وللشهادة بالتالي؟! أليس هو أحد المعنيين بقول الشاعر:

ولسنا على الأعقاب تدمى كلومنا

ولكن على أقدامنا تقطر الدما

كل ذلك صحيح ولكن ما فعل بجسد حمزة أثار في رسول الله غضباً حزيناً..

ها هي هند بعد أن وضعت الحرب أوزارها تتقدمها الشماتة والحقد تركض إلى مصرع حمزة يقودها وحشي، فمثلت به وجدعت أنفه وقطعت أذنيه ثم جعلت ذلك كالسوار في يديها، ثم بقرت بطنه

(١)الثنة : مابين أسفل البطن والعانة.

(٢)سيرة ابن اسحاق٣٢٩.

واستخرجت كبده فلاكتها فلم تستطع أن تسيغها فلفظتها.

ولم يكن زوجها أقل حقداً منها و وحشية فقد جاء إلى مصرع حمزة وضرب برمحه بين أسنان حمزة عليه السلام قائلاً: ذق عقق.. ولما أنكر عليه ذلك من كان معه طلب منه أن يستر عليه!!.

وعاد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بعد أن صلّى على حمزة اثنتين وسبعين صلاة، إذ بدأ بالصلاة عليه ثم صاروا يأتون بالشهداء فيضعونهم إلى جانبه فيصلي عليه وعليهم.

عاد وفي قلبه نبع فياض من الحزن على حمزة، حتى قال حفيده الإمام السجاد عليه السلام بعد سنوات ما من يوم كان أشد على رسول الله من يوم أُحد قتل فيه عمه حمزة سيد الشهداء..

ومرّ على دور الأنصار فسمع بكاء نسائهم على قتلاهن وشهدائهن وجاش الألم في قلب الرسول على حمزة قائلاً:

لكن حمزة لا بواكي له.

ومواساة من الأنصار للرسول صلى الله عليه وآله وسلم في عمه حمزة، أمروا نساءهم أن يبكين حمزة، فكنّ يبدأن بذكر حمزة إذا أردن النياحة على شهدائهن.

ويظل وسام (أسد الله وأسد رسوله) يستبق مع وسام: «رحمة الله عليك، فإنك ما علمت وصولاً للرحم فعولاً للخيرات».

أبو عبد الله جعفر ابن أبي طالب (الطيار)

توفي شهيداً في مؤتة سنة ٨ هـ

«.. ورأيت جعفراً ملكاً ذا جناحين مضرجاً بالدماء مصبوغ القوادم..».

رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

البهو واسع يغمر الناظر بالهيبة.. صور وأيقونات تمثل السيد المسيح وأمه العذراء عليهما السلام تنتشر بنظام على جدران ذلك البهو، فتزيده سكينة وهيبة.

أينما قلّبت طرفك في أرجائه تجد شكل الصليب، محفوراً على الأعمدة ومنحوتاً في الرخام ومرسوماً على خشب الساج.

ينتهي ذلك البهو إلى مقاعد يتوسطها عرش الملك..

إننا في الحبشة، في بلاط الملك العادل النجاشي، واليوم سيشهد هذا البلاط حلقة مهمة من حلقات الصراع بين الإسلام والوثنية.

في الخارج جلبة وأصوات.. ترى من جاء؟! النجاشي؟! كلا ليس بعد.. فالداخلون لم يكونوا غير وزرائه والأساقفة، وبدا في الخلف رجلان يلبسان لباس الأعراب.

دفعة أخرى من الداخلين، بعد أن استقر بالأولين مجلسهم دخلوا بلا ضجيج في صفوف منتظمة، ووقفوا في أحد جوانب البهو الواسع.. يقودهم رجل في الثلاثينات من العمر. مهيب الطلعة، أنور الوجه، وبالرغم من أن السفر الذي قطعه كان متعباً إلا أنه لم ينل من

إشراقة وجهه.. إنه جعفر ابن أبي طالب!.

جاء النجاشي.. وأخذ الجميع وضع الاستعداد لاستقباله، ودخل بينما انحنى الوزراء والأساقفة تحية للملك، وتقلصت قامة عمرو بن العاص وصاحبه، وبالغا في الإنحناء... لا يهم عند عمرو أي نوعٍ تكون الوسيلة مادامت ستوصله إلى غايته، ويتبسم بخبث قائلاً لصاحبه:

ـ سنرى كيف تنحني هذه الرقاب غداً..

ـ ألا تركعون لنبيكم؟! سأل النجاشي جعفرا والمسلمين.

ـ نحن لا نركع لغير الله وحده... أجاب جعفر.

بقدر ما كان جعفر مطمئناً بنصر الله كان المسلمون السبعة والثمانون قلقين.. ذلك أنهم ما كادوا يتركون مكة مهاجرين ناجين بدينهم من فتنة قريش وببدنهم من إذاها، وما كادوا يتنفسون الصعداء في بلاد الحبشة حتى استنفرت قريش كل طاقتها لإعادة هؤلاء المهاجرين لكيلا تكون أمل المعذبين في مكة. ولذلك أرسلت قريش عمراً بن العاص داهيتها لإرجاعهم، ولم ينس هذا الأخير أن يحمل الهدايا الكثير والثمين ويوزعها على الوزراء والأساقفة ويحتفظ للملك بالهدية الكبرى.. لقد كان عمرو واثقاً أن رقاب المسلمين ستنحني غداً في القيد بعد أن تكون الهدايا قد آتت أُكُلها.

وكانت قلوب المهاجرين من الضعفاء في رجل طائر، إذ كلما يمر في ذاكرتهم حديث المكاوي، والسياط، والتجويع والتعطيش يزداد وجيب قلوبهم، ويتفصد العرق في الوجوه كجمرٍ.

لذلك كان الموقف حاسماً، كلمة تزيد أو أخرى تنقص، من الممكن أن ترسل هؤلاء المهاجرين إلى الهاوية القرشية... منهم من كان يفضل مجاملة النجاشي والأساقفة في دينهم حتى تمر الغمامة

السوداء بسلام، غير أن جعفراً الذي كان شبيه الرسول ﷺ خلقاً وأخلاقاً، لم يشأ أن يعالج الموقف بتلك الصورة، فقد ملأ اليقين قلبه بصدق الرسول وأن الله منجز له ما وعده، ومنذ ذلك اليوم الذي أمره أبوه أبو طالب بالإيمان بالنبي ﷺ، حين كان يصلي معه علي أخوه وخديجة، قائلاً: صل جناح ابن عمك..

منذ ذلك اليوم وهو يمتلئ إيماناً بأن الله سيظهر هذا الدين على الدين كله.. لذلك وجد الصدق منجاة ولم يقبل أن يتحدث بغير الواقع.. واستطاع بموقفه الشجاع أن يرد الاطمئنان إلى نفوس أولئك المهاجرين.

لم يقطع الصمت السائد إلاّ كلام عمرو بن العاص..

ــ أيها الملك.. أنه قد ضوى (أوى) إلى بلدك منا غلمان سفهاء فارقوا دين قومهم ولم يدخلوا في دينك وجاؤوا بدين ابتدعوه لا نعرفه نحن ولا أنت وقد بعثنا إليك فيهم أشراف قومهم من آبائهم وأعمامهم وعشائرهم لتردهم عليهم فهم أعلى بهم عيناً وأعلم بما عابوا عليهم وعاتبوهم فيه.

ــ يا عمرو أعبيدٌ هم لكم؟! سأل النجاشي.

ــ كلا.

ــ هل لكم عليهم دَين؟!.

ــ كلا..

والتفت إلى جعفر قائد مجموعة المهاجرين:ــ

ــ ما هذا الدين الذي فارقتم فيه قومكم ولم تدخلوا في ديني ولا دين أحد من هذه الملل؟!.

وانتصب جعفر كالسيف، وانطلق متحدثاً عن الحالة التي كانت عليها العرب، والتغيير الذي جاءت به رسالة الإسلام، وأفرغ عن

معدن البلاغة الهاشمية مرتجلاً:

«كنا قوماً أهل جاهلية، نعبد الأصنام ونأكل الميتة ونأتي الفواحش وتقطع الأرحام ونسيء الجوار ويأكل القوي منّا الضعيف حتى بعث الله إلينا رسولاً منّا نعرف نسبه وصدقه وأمانته وعفافه، فدعانا إلى الله لنوحده ونعبده ونخلع ما كنا نعبد نحن وآباؤنا من الحجارة والأوثان وأمرنا بصدق الحديث وأداء الأمانة وصلة الرحم وحسن الجوار والكف عن المحارم والدماء، ونهانا عن الفواحش وقول الزور وأكل مال اليتيم وقذف المحصنات، فصدقناه وآمنا به واتبعناه على ما جاءه من ربه فعبدنا الله وحده ولم نشرك به شيئاً وحرّمنا ما حرّم علينا، وأحللنا ما أحل لنا فعدا علينا قومنا فعذبونا وفتنونا عن ديننا ليردوننا إلى عبادة الأوثان وإلى ما كنّا عليه من الخبائث.

فلما قهرونا وظلمونا وضيقوا علينا وحالوا بيننا وبين ديننا، خرجنا إلى بلادك ورغبنا في جوارك ورجونا ألا نظلم عندك».

أُخذ النجاشي وأساقفته، بل وعمرو بقدرة جعفر وبلاغته، فهو إضافة إلى سيطرته على الموقف حول ذلك المجلس إلى مكان دعوة وتبليغ لرسالة الإسلام، ولم يكن عمرو يتوقع هذه القدرة الفائقة التي سيطر بها جعفر على أحاسيس الملك، وكان يحب أن لا يستمع الملك، وكان يحب أن لا يستمع إلى كلامهم فضلاً عن الكلام الذي جاء بهم (محمد).

وتأثر النجاشي أكثر عندما أخبره جعفر أن النبي ﷺ أمرهم بالمجيء إلى الحبشة لأن ملكها عادل ولا يظلم عنده أحد.

ـ هل معك شيء مما جاء به نبيكم؟! سأل النجاشي.

ـ نعم.

ـ هلّم فاتل عليّ ما جاء به.

وابتدأ جعفر يتلو في خشوع من سورة مريم.

﴿كهيعص ۞ ذِكْرُ رَحْمَةِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّا ۞ إِذْ نَادَى رَبَّهُ نِدَاء خَفِيًّا ۞ قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُن بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا ۞ وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِن وَرَائِي وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا ۞ يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا ۞ يَا زَكَرِيَّا إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ اسْمُهُ يَحْيَى لَمْ نَجْعَل لَّهُ مِن قَبْلُ سَمِيًّا...﴾.

لقد كان كل شيء موظفاً لأداء التأثير المطلوب وهذا ما حدث.

فالجو كان جو دفاع مظلومين عن أنفسهم ودينهم، وجعفر بقدرته الهاشمية في الخطابة، وأخيراً انتخابه لآيات من سورة مريم كانت تدق على الوتر الحساس لدى النجاشي وأساقفته المسيحيين، فلو أن جعفر قد اختار سورة أخرى ربما لم تؤثر في نفوسهم أثر سورة مريم.. وأهم من كل ذلك نفس الأثر الذي يخلفه القرآن في نفوس سامعيه، فلو كان جبلاً لرأيته خاشعاً متصدعاً..

وخشعت القلوب، وفاضت الأعين مما عرفوا من الحق.

وقام النجاشي إعظاماً لهذا الكلام ثم التفت إلى جعفر والمسلمين معه:

ـ إن هذا والذي جاء به عيسى يصدر من مشكاة واحدة، وانطلقوا راشدين فو الله لا أسلمكم إليهما.

وتعانق المسلمون وكان عيد نصر حقيقي صنعه جعفر، وأترعت نفس عمرو بحقدها، ولم يكن ليتنازل بهذه السرعة، وحاول مرة أخرى أن «يأتي النجاشي بما يستأصل خضراءهم» لكن يد الله كانت معهم، فعاد إلى قريش يعثر بأذيال خيبته، ولم يحصد غير فقدان صداقة النجاشي، وخسران هداياه للأساقفة.

وخرج جعفر والمهاجرون من ذلك المجلس لا خوف علـيهم ولا هم يحزنون، واستمروا في حياهم ينتظرون خبر النبي صلى الله عليه وآله وسلم.

❀❀❀

في تلك الأثناء كانت دعوة الإسـلام تتقـدم مـن فـتح إلى آخـر، ولكن أهم فتوحها كان هجرة الرسول صلى الله عليه وآله وسلم إلى المدينة، تلك الهجرة التي فتحت تاريخاً جديداً في الجزيرة العربية، وأصبحت المدينة مركـز النواة الأولى لدولة الإسلام الكبرى، منـها ينتـشر الـوعي والمعرفـة، وهكذا تحولت من (يثرب) المرض والجو الفاسد إلى (طيبة) ولم يكـن هذا التحول في الاسم فقط، بل إن الـروح الـتي نفخهـا الرسـول في المسلمين حوّلت هذه المنطقة إلى نموذج.

ولم يكن متوقعاً أن يسكت كفار قريش عن هذه التجربـة، فقـد كان وجودها تحدياً وجودياً صارخاً لوجود قريش، واستمرارها يعـني هزيمة قريش في مقاومتها. لذلك كان همّ عتاهـا القـضاء علـى هـذا الوجود.. فكانت (بدر الصغرى) و(الكـبرى) شـربت قـريش كـأس مرارة الهزيمة العسكرية حتى الثمالـة علـى يـد الحفـاة المجـردين عـن السلاح، ورجعت راغمة بعد أن خلفت وراءهـا سـبعين جثـة مـن (عظامها) ومثلهم من الأسرى.. وكررت التجربة في (أُحد) ولم تسلم من مصير (بدر) إلاّ بشق الأنفس.

ودخلت السنة السابعة وكان النبي قد أنهـى لتـوّه غـزوة خيـبر، الأكثر أهمية بعـد بـدر، واسـتطاع أن ينـهي أسـطورة اليهـود، وأن يستأصل سرطانهم الذي كان يفتك بأهل المدينة من حيث سـيطرتهم على المال وسوء استغلاله.

وكما كان نصر الحبشة على يد جعفر ابن أبي طالب، فقد كـان فتح خيبر على يد أخيه علي بـن أبي طالـب فقـد ضـيّق المـسلمون الحصار على حصون خيبر واليهود يستميتون في الدفاع إيماناً منـهم بأن هزيمتهم أمام محمد هي القضاء الأخير على بني إسرائيل في بـلاد

العرب وتتابعت الأيام فبعث الرسول أبا بكر إلى حصن ناعم كي يفتحه، فقاتل ورجع دون أن يفتح الحصن، وبعث الرسول عمر بن الخطاب في الغداة فكان حظه كحظ أبي بكر فما لبث أن رجع منهزماً يجبّن أصحابه ويجبّنه أصحابه، وعندها قال الرسول ﷺ: لأعطيّن الراية غداً رجلاً يحبّ الله ورسوله ويحبه الله ورسوله يفتح الله على يديه كرّار ليس بفرار.. وهكذا:

يوم قال النبي إنيلأعطي	رايتي ليثها وحامي حماها
فاستطالت أعناق كل فريق	ليروا أي ماجد يعطاها
فدعا ابن صاحب العلم والحـ	لم مجير الأيام من بلواها
فأتاه الوصي أرمد عين	فسقاه من ريقه فشفاها
ومضى يطلب الصفوف فولّت	عنه علماً بأنه أمضاها
وبرى مرحباً بكف اقتدار	أقوياء الأقدار من ضعفاه

فخرج علي بها والله يصول ويهرول هرولة وإنّا لخلفه نتبع أثره حتى ركز رايته في رضم حجارة تحت الحصن، فاطلع يهودي من رأس الحصن فقال: من أنت؟!

قال: أنا علي بن أبي طالب. فقال اليهودي لقومه: غلبتم وما أنزل على موسى.

وخرج مرحب صاحب الحصن وعليه مغفر يماني وحجر قد ثقبه مثل البيضة على رأسه وهو يرتجز ويقول:

قد علمت خيبر إني مرحب

شاكي السلاح بطل مجرّب

إذا الليـــوث أقبلـــت تلـــهب

وأحجمت عن صولة المــغلب

فأجابه علي بن أبي طالب:

أنـا الـذي سمـتني أمـي حيـدرة

كليث غابات شديد القســـورة

فاختلفا ضربتين فبدره علي بضربة فقدّ الحجر والمغفـر ورأسـه ووقع في الأضراس.

ولما دنا من الحصن خرج إليه أهله فقاتلهم فضربه رجل منـهم فطرح ترسه من يده فتناول علي باب الحصن فترّس بـه عـن نفـسه فلم يزل في يده حتى فتح الله عليه وطرحه لكي يـصير المـسلمون إلى داخل الحصن.

قال جابر بن عبد الله إن علياً حمل الباب يوم خيبر حـتى صـعد المسلمون عليه فافتتحوها وأنه جرب بعد ذلك فلـم يحملـه أربعـون رجلاً.(١)

وهكذا فتحت حصون اليهود الستة: السلالم والقموص والنطاة والقصارة والشق والمربطة وفيها عشرون ألف مقاتل ففتحها حـصناً حصناً فقتل المقاتلة وسبى الذرية.

فتح خيبر الذي كان بهذه الأهمية، يوازيه عند الرسول ﷺ قدوم جعفر ابن أبي طالب، فما أن وصل جعفر وأخبر الـنبي ﷺ بـذلك حتى قام إليه واعتنقه وقبّل مابين عينيه، وقال:

---

(١)البداية والنهاية ١٩٠\٤.

ـ لا أدري بأيّهما أسر.. بفتح خيبر أم بقدوم جعفر.

ثم التفت إلى جعفر، قائلاً له: ألا أعطيك؟ ألا أحبوك؟! وظنّ الجالسون أنه يريد أن يمنحه هدية مالية، من ذهب خيبر أو غيره فعلمه الرسول ﷺ الصلاة المعروفة بصلاة جعفر.

واستبشر المساكين خيراً فقد جاء إلى المدينة (أبو المساكين)، وخاض غمار الحياة الإسلامية، بما عرف عنه من جدية وحرص على الدين، وبما يملك من كفاءات، فلم يكن مشهد. من مشاهد الرسول أو مغازيه يخلو من (الطيار). لقد هض النبيَّ قتلُ حمزة في (أُحد) ولكن وجود أمير المؤمنين علي عليه السلام ووجود أخيه جعفر فيما بعد خفف وطأة ذلك عن النبي ﷺ.

❀❀❀

وبعد القضاء على اليهود في المدينة، وكسر شوكة قريش وحلفائها في (الخندق)، انطلقت قوافل الدعاة تنشر الوعي والمعرفة حاملة كتاب الله، داعية إلى توحيده، في أنحاء الجزيرة العربية وخارجها.

وإلى بصرى في الشام بعث الحرث بن عمير الأزدي. والذي أخد يجد السير حتى وصل إلى مؤتة، حيث تعرض له شرحبيل الغساني عامل هرقل، وسأله: أين يريد؟! فقال الشام.

فقال له: لعلّك من رسل محمد!! قال نعم.. فأوثقه رباطاً ثم قدمه وضرب عنقه.. ولم تكن الرسل تقتل آنئذٍ.

وإذا كان المسلم لا يبالي على أي جنبيه وقع على الموت، لأن مآله إلى الجنة، إلاّ أن هذا العمل كان تحدّياً سافراً لاعتبار المسلمين ومخالفة صريحة لكل الأعراف.. لذلك كان له وقع شديد على النبي ﷺ والمسلمين، فأرسل الرسول ﷺ ثلاثة آلاف من المسلمين

لقتال ذلك الوالي.

وسبقت أخبار تلك القوة المرسلة إلى شرحبيل الذي أوصلها بدوره إلى هرقل، وكانت الفرصة التي ينتظرها الروم فعبأوا مائة ألف من مقاتليهم. ووجهوها لقتال المسلمين، الذين وصلتهم أخبار هذه الحشود فأقاموا يتبادلون الرأي بين المضي والرجوع أو الكتابة للنبي ﷺ إما أن يمدهم بالرجال أو يأمرهم بالرجوع، وكاد هذا الرأي يتغلب، إلاّ أن أحد قادة الجيش وهو عبد الله بن رواحة وقف فيهم:

ـ يا قوم.. والله انا لم نكن نقاتل الناس بعدد وكثرة بل نقاتل بهذا الدين الذي أكرمنا الله به فإنما هي إحدى الحسنيين إما ظهور على العدد وإما الشهادة.

كانت هذه الكلمات (كيمياء) الموقف التي قلبت نحاس الخوف إلى ذهب الإقدام، وهكذا وقف ثلاثة آلاف مقابل مائة ألف.

وبالرغم من أن نهاية المعركة لم تكن لصالح المسلمين، وهذا طبيعي إذ أنهم يواجهون ثلاثة وثلاثين ضعفاً، ومع حساب فارق التسليح والظروف الأخرى تزداد هذه النسبة.

والتحم الجيشان، وزيد بن حارثة يحمل الراية ويغوص في جيش الروم حتى يغيب لكن الراية ترفرف ويعود، وهكذا حتى قتل والراية لما تسقط فقد أخذها جعفر ابن أبي طالب، ونزل عن فرسه الشقراء وعقرها وأنشأ يقول:

ياحبذا الجنة واقترابها طيبة وبارد شرابها

والروم روم قد دنا عذابها كافرة بعيدة أنسابها

عليّ إن لاقيتها ضرابها

وحمل على القوم كصاعقة راجلاً، فلا يتصل بأحد إلا نصّفه

بسيفه حتى قطعت يمينه، وكان همه أن تبقى الراية خفّاقة، وإن سقطت يمناه، فأخذها بيساره، وقطعت فاحتضن الراية بزنديه المقطوعين إلى صدره، وحملوا عليه فقتل رضوان الله عليه.

❁❁❁

وفي المدينة.. رسول الله ﷺ يتقدم إلى بيت جعفر

في خطى وئيدة وآثار الحزن قد كست وجهه، وطرق الباب، ففتحت أسماء بنت عميس زوجة جعفر.

ـ أين بنو جعفر؟!

فجاءته بعبد الله وعون ومحمد، فأجلسهم في حجره وجعل يمسح على رؤوسهم ويبكي.

ـ يا رسول الله إنك تمسح على رؤوسهم كالأيتام فهل بلغك عن جعفر وأصحابه شيء؟!.

ـ يا أسماء ألم تعلمي بأن جعفر قد استشهد؟!.

ولم تسع محاجر العيون دمعة القلب، ففاضت، فقال لها:

ـ لا تبكي فإن الله أخبرني أن له جناحين في الجنة من ياقوت أحمر يطير بها مع الملائكة.

عبد مناف بن عبد المطلب (أبو طالب)

توفي بعد عشر سنوات من بعثة النبي ﷺ العمر ٨٥ سنة

ولــولا أبــو طالــب وابنــه	لما مثـل الـدين شخـصاً وقامـا
فــذاك بمكــة آوى وحــامى	وهـذا بيثـرب جَـس الحِمامـا
ومــا ضــرّ مجــدَ أبي طالــب	جهول لغـى أو بـصير تعـامى
كمـا لا يـضر إيـاب الـصبا ح	من ظنّ ضـوء النـهار الظلامـا

ابن أبي الحديد المعتزلي

مرّ الشتاء دون أن ترسل الـسماء قطـرة مـن غيثهـا، وأجـدبت الأرض فلا واحة إلاّ وأكل الجفاف رونقها وبهاءها، وهامت الـدواب تبحث عن مرعى دون جدوى، وتوقع القرشيون الهلاك، فـإن انتـهى الشتاء على هذه الحال، فلا ضرع ولا زرع.

وجاؤوا إلى شيخ الأبطح..

ـ يا أبا طالب.. أقحط الوادي، وأجدب العيال فهلمَّ واستسقِ.

كان من عادة قريش إذا أقحطوا توسلوا ببني هاشم، وخرج هذه المرة أبو طالب «ومعه غلام كأنـه شمـس تجلّـت عنـه سـحابة قتمـاء وحوله أغيلمة، فأخذه أبو طالب فألصق ظهره بالكعبة ولاذ بإصبعه الغلام، وما في السماء قزعة ـ أي قطعة سـحاب ـ فأقبـل الـسحاب من هاهنا وها هنا وأغدق، واغدودق وانفجر لـه الـوادي وأخـصب

البادي والنادي...»[1].

كان ذلك للمرة الثانية في عرض أبي طالب لهذا الغلام ذي الشأن الكبير، وكان أبو طالب الذي سمع من أبيه عبد المطلب أنه سيولد من نسله نبي من أنبياء الله العظام وأوصى بنيه بنصره يعلم أن هذا الغلام ابن عبد الله أخيه هو النبي المنتظر، ولكنه كان يريد تعريف قريش به من خلال كراماته ومناقبه..

هاهو الركب المغادر إلى الشام للتجارة في رحلته السنوية على وشك الانطلاق،

وفيه أبو طالب، و (محمد) ابن أخيه آخذ بزمام ناقته يطلب منه أن يرافقه: يا عم إلى من تكلني لا أب لي ولا أم لي؟! فرقّ له أبو طالب وقال: والله لأخرجن به معي ولا يفارقني ولا أفارقه أبداً.

فخرج به معه فلما نزل الركب (بصرى) من أرض الشام وبها راهب يقال له: بحيرا في صومعة له وكان أعلم أهل النصرانية ولم يزل في تلك الصومعة، راهب إليه يصير علمهم من كتاب فيهم كما يزعمونه يتوارثونه كائناً عن كائن فلما نزلوا ذلك العام ببحيرا وكانوا كثيراً ما يمرون عليه قبل ذلك فلا يكلمهم ولا يتعرض لهم حتى إذا كان ذلك العام نزلوا به قريباً من صومعته فصنع لهم طعاماً كثيراً وذلك فيما يزعمون عن شيء رآه وهو في صومعته من الركب حين أقبلوا، وغمامة تظلّه ﷺ من بين القوم ثم أقبلوا حتى نزلوا بظلّ شجرة قريباً منه فنظر إلى الغمامة حتى أظلت الشجرة وهصرت (يعني هدلت) أغصانها على رسول الله حتى استظل تحتها فلما رأى بحيرا ذلك نزل من صومعته وقد أمر أن يصنع لهم ذلك الطعام فصنع ثم أرسل إليهم فقال: إني قد صنعت لكم طعاماً يا معشر

(١)الغدير ٧/ ٣٤٦.

قريش وأنا أحب أن تحضروا كلكم صغيركم وكبيركم وحرّكم وعبدكم، فقال له رجل منهم: يا بحيرا إن لك اليوم لشأناً ما كنت تصنع هذا فيما مضى وقد كنا نمر بك كثيراً فما شأنك اليوم؟!.

قال بحيرا: صدقت قد كان ما تقولون ولكنكم ضيوف فأحببت أن أكرمكم وأصنع لكم طعاماً تأكلون منه كلكم. فاجتمعوا إليه وتخلف رسول الله ﷺ من بين القوم لحداثة سنه في رحال القوم تحت الشجرة فلما نظر بحيرا في القوم لم ير الصفة التي يعرفها وهي موجودة عنده، فقال:

ـ يا معشر قريش لا يتخلف أحد منكم عن طعامي هذا. فقالوا: ما تخلف عنك أحد ينبغي أن يأتيك إلاّ غلام هو حدث القوم سناً تخلف في رحالهم.

قال: لا تفعلوا، ادعوه فليحضر هذا الطعام معكم.

فقال رجل من قريش: واللات والعزى إن لهذا اليوم نبأ، أيليق أن يتخلف ابن عبد الله عن الطعام من بيننا.. ثم قام إليه فاحتضنه ثم أقبل به حتى أجلسه مع القوم فلما رآه بحيرا جعل يلحظه لحظاً شديداً وينظر إلى أشياء من جسده، قد كان يجدها عنده في صفته حتى إذا فرغ القوم من الطعام وتفرقوا قام بحيرا فقال له: يا غلام أسألك باللات والعزى إلاّ أخبرتني مما أسألك عنه.

فقال رسول الله ﷺ: لا تسألني باللات والعزى شيئاً قط.

قال بحيرا: فبا لله إلاّ ما أخبرتني عما أسألك عنه.. قال له ﷺ:

سلني عما بدا لك. فجعل يسأله عن أشياء من نومه وهيئته وأموره ورسول الله يخبره فيوافق ذلك ما عند بحيرا من صفته ثم نظر إلى ظهره فرأى خاتم النبوة بين كتفيه على موضعه من صفته التي هي عنده.

كل ذلك وأبو طالب يرقب الموقف.. حيث أنشأ يقول:

أن ابن آمنة النبي محمد عندي يفوق منازل الأولاد

إلى آخر أبياته...

وينزل الأمين جبرئيل على رسول الله، وهو في غار حراء متوجاً بذلك سلسلة إخبارات وأصوات كان يسمعها الرسول ﷺ سابقاً و(يبعث) إلى الناس كافّة لإخراجهم من عبادة العباد و الأحجار إلى عبادة الله.

ويعرف الرسول ﷺ ماذا تعني الدعوة الجديدة بالنسبة لقريش إنها تعني النسف الكامل لكل ما بنوه من مجد باطل، وعبادة زائفة، وتسلطوا على سائر القبائل مستفيدين من وجودهم قرب بيت الله الحرام، ولذلك فقد كان بحاجة إلى قلب حان، وذراع قوية، يدفئه الأول وتحميه الثانية ويأتي إلى عمه العباس بن عبد المطلب:

ـ إن الله قد أمرني بإظهار أمري وقد أنبأني فما عندك؟! قال الرسول لعمّه العباس الذي أجابه:

ـ يا ابن أخي قريشاً أشد الناس حسداً لولد أبيك، وإن كانت هذه الخصلة كانت الطامة الطّماء والداهية العظيمة ورمينا عن قوس واحد وانتسفونا نسفاً، ولكن قرّب إلى عمّك أبي طالب فإنه كان أكبر أعمامك، أن لا ينصرك، ولا يخذلك ولا يسلمك.

وهكذا لم يجد الرسول في عمه العباس قدرة الحماية والتصدي للدفاع عن دعوته، فاتجه ﷺ مع العباس إلى أبي طالب، فلما رآهما قال: إنك لكما تظنة وخبرا ما جاء بكما في هذا الوقت؟! فعرّفه العباس ما جرى، فنظر أبو طالب إلى النبي ﷺ وقال له:

ـ اخرج يا ابن أبي فإنك الرفيع كعباً والمنيع حزباً والأعلى أباً... والله لا يسلقك لسان إلاّ سلقته ألسن حداد واجتذبته سيوف حداد،

والله لتذلنّ لك العرب ذلّ البهم لحاضنها، ولقد كان أبي يقرأ الكتاب جميعاً ولقد قال: إن من صلبي لنبياً لوددت أني أدركت ذلك الزمان فآمنت به فمن أدركه من ولدي فليؤمن به.[١]

ووجد أبو طالب ما كان يبحث عنه، ذلك أنه وآباءه وهم يدينون بالحنيفية الإبراهيمية كانوا يقرؤون الكتب ويتوارثون العلم عن النبي المنتظر الذي ستذلّ له العرب، ويتواصون بالإيمان به والفداء في نصرته إن أدركوه، وهكذا يمرّ جيل وآخر حتى كان هذا اللقاء، وأكّد لأبي طالب صحة ما قد توسّمه في ابن أخيه...

ولـــكن.....

إنه يقف أمام منعطف خطر، وعليه أن يستخدم أقصى ما يملكه من ذكاء، بحيث يخفي عقيدته وإيمانه لكي يستطيع أن يبقى في موقع (شيخ الأبطح) وسيد قريش.

ومن خلال ذلك يقوم بحماية الرسول والمؤمنين به دون أن يكون موقع التهمة، ويحتاج من يمارس هذا الدور إلى نفس صلبة وعقيدة راسخة تماماً كمؤمن آل فرعون، وكأهل الكهف الذين «أسرّوا الإيمان وأظهروا الشرك فآتاهم الله أجرهم وأن أبا طالب أسرّ الإيمان وأظهر الشرك فآتاه الله أجره مرتين».[٢]

ومارس أبو طالب هذا الدور بكل دقة واتقان.. ولو كان قد أعلن إيمانه منذ البدء لم يكن يستطيع ذلك.

لقد ألقي عليه هذا القول الثقيل والمسؤولية الكبرى، في حفظ صاحب الرسالة، خصوصاً وأن قريشاً التي لم تشهد تحدّياً كهذا كانت

---

(١)الغدير عن نهاية الطلب والسؤال في مناقب آل الرسول.

(٢)الإمام الصادق عليه السلام.

قد عقدت العزم الأكيد على تصفية وجود النبي واغتياله، وكما عقدت قريش عزمها على قتل الرسول، فقد عقد أبو طالب ميثاقاً مع الله أن يدفع عن رسوله، فادياً في ذلك نفسه وأولاده، قائلاً:

كذبتم وبيت الله يبزى محمد ... ولما نطاعن دونه ونناضل

ونسلمه حتى نصرّع حوله ... ونذهل عن أبنائنا والحلائل

ألم تعلموا أن ابننا لا مكذب ... لدينا ولا نعبا بقول الأباطل

ولذلك كان أكثر ما يخاف البيات (الاغتيال ليلاً) فكان إذا عرف مضجعه، يقيمه بعد أن يذهب من الليل هزيع، ويضجع ابنه علياً عليه السلام مكانه، فقال علي له ليلة: يا أبت إني مقتول!!.

فقال له أبوه:

اصبرن يا بني فالصبر أحجى ... كل حي مصيره لشعوب

قد بذلناك والبلاء شديد ... لفداء الحبيب وابن الحبيب

لفداء الأغر ذي الحسب الثا ... قب والباع الكريم النجيب

إن تصبك المنون فالنبل تبرى ... فمصيب منها وغير مصيب

فأجابه علي عليه السلام:

أتأمرني بالصبر في نصر أحمد والله ماقلت الذي قلت جازعاً
ولكنني أحببت أن تر نصرتي وتعلم أني لم أزل لك طائعاً
سأسعى لوجه الله في نصر أحمد نبي الهدى المحمود طفلاً ويافعاً[1]

ولم يكن يبق ذلك خفياً على قريش، لذلك كان كل واحد منهم يفكر في ردّ الفعل المتوقع من أبي طالب لو وصل إلى الرسول أذى وسوء، فهاهو أبو طالب لا يفتأ يذكر نصرته للرسول وذبّه عنه، ودعوة أبنائه للدفاع عنه وسائر الناس للإيمان به، وهو وإن لم يشأ إظهار إيمانه لما تقدم، إلاّ أنه لا يترك موقفاً يبين لقريش قوة محمد ﷺ به، إلاّ وأظهره، ولا أظهر من موقفه من زعماء قريش عندما تآمروا عليه قائلين: وما خير من أن نغتال محمداً..

فلما كان مساء تلك الليلة فقد رسول الله ﷺ وجاء أبو طالب وعمومته إلى منزله فلم يجدوه فجمع فتياناً من بني هاشم وبني عبد المطلب ثم قال: ليأخذ كل واحد منكم حديدة صارمة ثم ليتبعني إذا دخل المسجد فليجلس إلى عظيم من عظمائهم، فيهم ابن الحنظلية (يعني أبا جهل) فإنه لم يغب عن شر إن كان محمد قد قتل، فقال الفتيان: نفعل فجاء زيد بن حارثة فوجد أبا طالب على تلك الحالة. فقال له:

ـ يا زيد أحسست ابن أخي؟!

قال زيد: نعم كنت معه آنفاً.

فقال أبو طالب: لا أدخل بيتي حتى أراه، فخرج زيد سريعاً حتى أتى رسول الله ﷺ وهو في بيت عند الصفا ومعه أصحابه

(١)الغدير.

يتحدثون، فأخبره الخبر فجاء رسول الله ﷺ إلى أبي طالب، فقال له:

ـ يا ابن أخي أين كنت؟! أكنت في خير؟!

فأجابه: نعم، فقال له: ادخل بيتك.

فدخل الرسول ﷺ فلما أصبح أبو طالب غدا على النبي ﷺ فأخذ بيده على أندية قريش ومعه الفتيان والمطلبيون فقال:

ـ يا معشر قريش! هل تدرون ما هممت به؟! قالوا: لا.

فأخبرهم الخبر، وقال للفتيان: اكشفوا عمّا في أيديكم، فكشفوا فإذا كل رجل منهم معه حديدة صارمة، فقال لهم: لو قتلتموه ما بقيت منكم أحداً حتى نتفانى نحن وأنتم. فانكسر القوم وكان أشدهم انكساراً أبو جهل.

وبقدر ما هبطت الذلة رؤوس زعماء قريش، فقد مضى أبو طالب بالنبي ﷺ عزيز الجانب، مرفوع الهامة وهو يقول:

اذهب بُنيَّ فما عليك غضاضة	اذهب وقر بذاك منك عيونا
والله لن يصلوا إليك بجمعهم	حتى أوسد في التراب دفينا
ودعوتني وعلمت أنك ناصحي	ولقد صدقت وكنت قبل أمينا
وذكرت ديناً لا محالة أنه	من خير أديان البرية دينا

ولما رأت قريش أن الرسول في حصن منيع من القتل، وأنه لا يتم لهم ذلك مادام أبو طالب موجوداً، فتحولوا إلى طريق آخر وهو تصفية الشخصية والاغتيال الاجتماعي، عبر زيادة وتيرة الاستهزاء والسخرية، والإسقاط فكان طريقه ﷺ يمتلئ بالأشواك والحجارة، وبيته المجاور لبيت أبي لهب مكاناً كان هدفاً للأوساخ ولم يكن وحده في ذلك بل تساعده في ذلك (امرأته حمّالة الحطب). ولم يكن دور أبي

طالب في هذا الصعيد أقل من سابقه.

وفي المسجد الحرام، وحيث يصلي رسول الله ﷺ، جلس أبو جهل ومعه عدد من القرشيين، فلما دخل النبي في الصلاة، قال أبو جهل:

ـ من يقوم إلى هذا الرجل فيفسد عليه صلاته؟

فقام ابن الزبعرى فأخذ فرثاً ودماً فلطّخ به وجه النبي ﷺ، فانفتل النبي من صلاته، ثم أتى عمه أبا طالب:

ـ يا عم ألا ترى ما فُعل بي؟!.

ـ من فعل بك هذا؟! سأله عمه.

ـ عبد الله بن الزبعرى.

وانتهضت في أبي طالب حمية الدين الهاشميّة، وقام حاملاً سيفه على عاتقه ومشى معه، حتى أتى القوم، فلما رأوه قد أقبل جعلوا ينهضون، فقال لهم:

ـ والله لئن قام رجل جلّلته بسيفي.

فقعدوا حتى دنا إليهم، وقال (للنبي): يا بني من الفاعل بك هذا؟!.

فقال: عبدالله بن الزبعرى.. فأخذ أبو طالب فرثاً ودماً فلطّخ به وجوههم ولحاهم وثيابهم وأساء لهم القول..

ولك أن تتصور عزيزي القارئ" سادة" قريش وقد رجع كل واحد منهم إلى منزله وقد تخضبت لحيته، وتلطخت ثيابه من الدماء الفاسدة.

وإذ يؤمن حمزة أخوه برسول الله ﷺ، يقوى جانب الرسول فيسر ذلك أبا طالب، ويمرّ على أخيه مشجعاً إياه على الالتزام بدين

الرسول، وإظهار ذلك، وإشهاره أمام الناس قائلاً له:

فصبراً أبا يعلى على دين
وكن مظهراً للدين وفقت صابرا

وحُط من أتى بالحق من عند ربه
بصدق وعزم لا تكن حمزُ كافرا

فقد سرني إذ قلت أنك مؤمن
فكن لرسول الله في الله ناصرا

وبادِ قريشاً بالذي قد أتيته
جهاراً وقل:ما كان أحمد ساحراً[1]

وأطلقت قريش آخر سهم في كنانتها، المساواة، بعد أن فشلت المناوأة..

ـ يا أبا طالب هذا عمارة بن الوليد أنهد فتى في قريش وأجمله فخذه فلك عقله ونصره واتخذه ولداً فهو لك، وأسلم إلينا ابن أخيك هذا الذي قد خالفك دينك[2] ودين آبائك. وفرّق جماعة قومك وسنة أحلامهم، فنقتله فإنما هو رجل برجل.

كان بريق النجاح يطلّ من عيون القادمين إلى أبي طالب وهي

(١)المصدر عن أسد الغابة.

(٢)يظهر من هذه الجملة الأداء الرائع من قبل أبي طالب لدوره المتمثل في إخفاء الإيمان وإظهار الشرك، بحيث لم يشكوا في خلاف النبي لمعتقدات أبي طالب.

تلتقي، فما هي إلاّ ساعة من النهار حتى يحتفلوا بنخب قتل الرسول، إذ لم يكن يخالجهم أدنى شك في سرعة قبول أبي طالب.

جواب أبي طالب كان صفعة عنيفة لخيالاتهم، وهدماً لهيكل أمانيهم:

والله لبئس ما تسومونني!! أتعطونني ابنكم اغذوه لكم وأعطيكم ابني تقتلونه؟ هذا والله مالا يكون أبداً!.

وكان نتيجة ذلك المقاطعة الاقتصادية والاجتماعية الشاملة فقد اجتمعت قريش على أن يكتبوا كتاباً يتعاقدون فيه على بني هاشم وبني المطلب: أن لا ينكحوا إليهم ولا يبيعوا منهم شيئاً ولا يتبايعوا ولا يقبلوا منهم صلحاً أبداً ولا تأخذهم بهم رأفة حتى يسلموا رسول الله للقتل. ويخلوا بينهم وبينه.

وهكذا غدا شيخ الأبطح سجين الشِّعب يتجرع الغصص، تمرّ الأيام والحصار يشتد يوماً بعد يوم، والجوع يفتك بالصبية، والصيف والعطش يجهد الكبار، وما كان يرسله بعض القرشيين من المنصفين في جوف الليل من جمال محملة بالطعام لم يكن ليسد جوع الأفواه ولا يروي غليل عطشها، وأبو طالب يتحمل ذلك كله في سبيل الدفاع عن دين الله وحياطة رسول الله ﷺ ولا يزداد في اللأواء إلاّ بصيرة في دينه.

وكان يوم..

يقبل فيه الرسول على أبي طالب، و ليسر إليه من بين الجمع بكلمات، فيبتسم أبو طالب:

ـ يا ابن أخي! أربُّك أخبرك بهذا؟!.

ـ نعم. قال النبي ﷺ.

ـ والثواقب ما كذبتني قط.

❁❁❁

تهامس القرشيون، وسكروا بخمرة "وهم الانتصار" فما الذي جاء بأبي طالب ومعه الهاشميون، وقد بانت آثار الحصار على سمرة وجوههم، وضعف أبدانهم، وثيابهم أيضاً.. بينما رقّ غيرهم لحال أبي طالب، ذلك الذي كان أعز قريش، وشيخ أبطحها أيصير به التزامه بابن أخيه إلى هذا الحد من الجهد والبلاء؟!.

نعم.. ها قد جاء أبو طالب إلى المسجد:

ـ يا معشر قريش..

جرت بيننا وبينكم أمور لم تذكر في صحيفتكم فأتوا بها لعلّ أن يكون بيننا وبينكم صلح.. (لقد قال ذلك خشية أن ينظروا فيها قبل أن يأتوا بها فتفشل المهمة). وهكذا أتوا بها وهم لا يشكون أن أبا طالب يدفع إليهم النبي صلى الله عليه وآله وسلم.. ووضعوها بينهم، وقالوا لأبي طالب:

ـ قد آن لكم أن ترجعوا عما أحدثتم علينا وعلى أنفسكم!! فأجابهم:

ـ أتيتكم في أمر هو نصف بيننا وبينكم.. إن ابن أخي أخبرني ولم يكذبني: أن الله قد بعث على صحيفتكم دابة فلم تترك فيها إلاّ اسم الله فقط، فإن كان كما يقول فأفيقوا عما أنتم عليه فوالله لا نسلمه حتى نموت من عند آخرنا، وإن كان باطلاً دفعناه إليكم فقتلتم أو استحييتم فقالوا ـ بأجمعهم ـ: رضينا!!.

وفتحت الصحيفة فإذا بها قد أكلتها الأرضة من أولها إلى آخرها باستثناء اسم الله سبحانه وتعالى.

وبهذا خرجوا من الحصار وبان لمن كان له قلب صدق نبوة الرسول، وأرخ أبو طالب تلك الحادثة في قصيدته الدالية التي جاء فيها:

ألا إن خير الناس نفساً ووالـدا إذا عـد سـادات البريـة أحمـد

نـبي الإلـه والكـريم بأصـله وأخلاقـه وهـو الرشـيد المؤيـد

وخرج الجمع من ذلك الحصار، وكانت إرادة الله أن تختم حياة شيخ المؤمنين الحافلة بالفضائل، بفضيلة من هذا النوع، بعد أن بلغ به العمر أقصاه في خدمة النبي وأتباعه والدفاع عنه.

وهاهو أبو طالب مسجى على فراش الموت يلقي بعينيه لمن حوله من القرشيين موصياً بنصر النبي ﷺ، مستشرفاً أبعاد المستقبل حيث سيسخر الله لنصرة ابن أخيه من ينهي أسطورة قريش وينشر الدين لا في أرض العرب بل لكل الناس، ويبين أن سبب عدم إظهاره إيمانه خوفه الشنآن، والتزامه التقية..

وإني أوصيكم بمحمد خيراً فإنه الأمين في قريش والصديق في العرب، وهو الجامع لكل ما أوصيتكم به، وقد جاءنا بأمر قبله الجنان، وأنكره اللسان مخافة الشنآن، وأيم الله كأني أنظر إلى صعاليك العرب وأهل الأطراف والمستضعفين من الناس قد أجابوا دعوته وصدقوا كلمته، وعظموا أمره فخاض بهم غمرات الموت وصارت رؤساء قريش وصناديدها أذناباً، ودورها خراباً وضعفاؤها أرباباً، وإذا أعظمهم عليه أحوجهم إليه، وأبعدهم منه أحظاهم عنده، قد محضته العرب ودادها، وأصفت له فؤادها وأعطته قيادها.

دونكم يا معشر قريش! ابن أبيكم كونوا له ولاة ولحزبه حماة والله لا يسلك أحد سبيله إلاّ رشد ولا يأخذ أحد بهديه إلاّ سعد، ولو كان لنفسي مدة في أجلي تأخير لكففت عنه الهزاهز ولدفعت عنه الدواهي.

وأدار عينه في بني عبد المطلب، وأوصاهم بطاعة الرسول واتباعه.. على الخصوص..

ـ لن تزالوا بخير ما سمعتم من محمد وما اتبعتم أمره فاتبعوه وأعينوه ترشدوا..

وهكذا فكما كان حفظ محمد واتباعه رفيق حياة أبي طالب فقد كان ذكر (محمد) واسم (محمد) ودين (محمد) آخر لفظة من الدنيا، وأطبقت عينا مؤمن قريش.

ونزل الوحي على رسول الله لكي يهاجر تاركاً مكة فلم يعد له بها ناصر بعد أبي طالب.

حذيفة بن جابر (اليمان) العنسي

توفي سنة ٣٦ هـ

«ذلك الذي علم المفصلات والمعضلات وإن تسألوه عن المنافقين تجدوه بهم عليماً»

الإمام علي عليه السلام

اختلط المقاتلون، وتداخلت الصفوف، وثار الغبار، بحيث لم يعد بالإمكان التمييز إلاّ بصعوبة. وكان هم كل مقاتل أن يدافع عن نفسه بقتل من يواجهه. و لم تكن هناك علامات كافية لتمييز المسلمين عن غيرهم من الكفّار أثناء المعركة. و كان حذيفة بن اليمان ينتقل في خفّة و حماس مدرعاً بقوة قلبه، قابضاً على سيفه، وهو يسابق سواه من المسلمين في قتل الأعداء..

ساعة إذ التفت، و خفق قلبه. و تجمد في مكانه.. أترى ذلك الرجل الذي تتبعه سيوف المسلمين متعطشة لدمه.. يكون أباه جابر بن حسيل؟! القامة و الشبه كبير.. نعم.. إنه بعينه..لكن ما بال تلك السيوف المسلمة تلاحقه؟!.

صاح بكل ما يملك من صوت:

ـ أيها المسلمون.. إنه أبي جابر.. إنه أبي.. إنه أبي..

ولكن السيوف كانت أسرع من الكلمات، فقد ضاعت هذه بين صليل السيوف و حشرجات المحتضرين و صهيل الخيول.

و هوى والد حذيفة صريعاً بيد المسلمين خطأً.. و كانت ندامة

من قتله تساوي حزن حذيفة على أبيه..

و بينما وجد من المسلمين من قتل قاتل أبيه ـ في الجاهلية ـ ثأراً.. كما فعل الحارث بن سويد في يوم أحد، إذ قتل المجذر و كلاهما من المسلمين، قتل الأولُ الثاني غدراً في المعركة،لأنّ الثاني قتل أب الأول في الجاهلية، و جاء هذا بقيم الجاهليّة ليقتص من أخيه المسلم!!.

وجدنا حذيفة يغالب دمعه و يقاوم حزنه و يقول. مخاطبا من قتل أباه المسلم خطأ:

يغفر الله لكم و هو أرحم الراحمين..

و يبلغ رسول الله ﷺ نبأ الحادثة فيكبر فيه هذه الروح المؤمنة و يأمر بدفع الدية لحذيفة، فيتصدق بها هذا على المسلمين.

و يكشف هذا الموقف ـ و غيره فيما بعد ـ عن عقيق الإيمان اليماني الخالص الذي يملكه حذيفة. و هكذا اختص برسوله ليكون صاحب سره و العليم بأسماء المنافقين و الواعي بدور الطابور الخامس. بل و منفذ العمليات الخاصة.

ففي غزوة الخندق، و بعد أن جمعت قريش من الخف والكراع ما استطاعت للقضاء على دعوة الإسلام، و استعانت باليهود الذين هم ﴿أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ آمَنُوا﴾.. و في أبلغ تعبير تتحدث الآيات القرآنية الكريمة مصوّرة الموقف السائد آنئذ: ﴿إِذْ جَاءُوكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا * هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالاً شَدِيداً﴾

وبالرغم من أن قتل علي بن أبي طالب لعمرو بن ود العامري بضربة هي أفضل من عبادة الثقلين قد حسم المعركة معنويا لصالح

المسلمين، إلاّ أنّ بقاء مصدر هذا العدد الكبير من المقاتلين الكفار كان يشكل مصدر خطر على المدينة و مسلميها فرأى النبي أن يتعرف حال معسكر الكفّار، و نقاط ضعفهم.

و لابد من التسلل إليهم.. و لكن من يقوم بهذه المهمّة الشجاعة؟!.

نادى الرسول رجالاً. فاعتذروا بالاستغفار! فنادى حذيفة:

ــ ائت هؤلاء القوم حتى تأتينا بخبرهم ولا تحدثن حدثاً حتى ترجع.. و أضاف الرسول ﷺ: «اللهم احفظه من بين يديه و من خلفه و عن يمينه و عن شماله و من فوقه و من تحته حتى يرجع» و انطلق حذيفة الذي رأى أن هذا الدعاء من الرسول في حقه أفضل من الدنيا و ما فيها إلى معسكر الكفّار.

«و أتيت القوم فإذا ريح الله و جنوده تفعل بهم ما تفعل ما يستمسك لهم بناء و لا يثبت لهم نار و لا يطمئن لهم قدر فإني كذلك إذ خرج أبو سفيان من رحله ثم قال:

ــ يا معشر قريش لينظر أحدكم من جليسه، فبدأت بالذي عن يميني فقلت: من أنت! قال: أنا فلان.. ثم عاد أبو سفيان لراحلته، فقال: يا معشر قريش و الله ما أنتم بدار مقام هلك الخف والحافر و أخلفتنا بنو قريظة و هذه الريح لا يستمسك لنا معها شيء.. ثم عجل فركب راحلته و إنها لمعقولة ما حلّ عقالها إلا بعد ما ركبها، فقلت في نفسي: لو رميت عدوّ الله فقتلته كنت صنعت شيئاً، فوترت قوسي ثم وضعت السهم في كبد القوس و أنا أريد أن أرميه فذكرت قول رسول الله ﷺ لا تحدثن شيئا حتى ترجع فحططت

القوس ثم رجعت إلى رسول الله....»[(١)]

و هكذا كان في مواقف الرسول و معاركه سباقاً إلى كل خير و مبادراً إلى كل خطب جليل.

و عرف حذيفة أنه يوجد حول الرسول ﷺ منافقون، و خطوط مائلة عن هدى الرسول، و إذا كان من الصعب تمييز و معرفة المنافقين، فإن الأصعب معرفة الخطوط المائلة، ذلك أن هؤلاء يلبسون ثوب الصحبة، و يرتدون عباءة الدين، و يحضرون الصلاة في الصفوف الأولى، و يطيلون اللحى و تنطلي مظاهرهم هذه على الكثير من البسطاء و السذّج، وهؤلاء لا ينتظرون شيئاً في حياة الرسول و إنما يزرعون كل هذه المظاهر ليحصدوا ثمارها بعد رحيله، و لذلك فهم يحافظون كثيراً على حياتهم و لا يعرضون أنفسهم للخطر و إذا ما اضطرتهم الظروف للاشتراك في الحرب، فهم عادة في الصفوف الخلفية، و تبحث ـ عبثاً ـ في صفحات السيرة و التاريخ عن مواقف شجاعة،أو بطولة في حرب أو غزوة، فلا تجد، فيضطر من بعدهم إلى التكلف في التفسير و يتعبون أنفسهم في التحليل، عاصرين الكلمات ـ لا المواقف ـ ليكتشفوا الشجاعة!!.

لقد عرف حذيفة هؤلاء، ولكن لم يكن مأذونا في كشفهم على الملأ حيطة على الإسلام و حفاظاً على كيانه، و لكنه وإن لم يستطع كشف تلك الخطوط المنافقة فإنه لم يقصر في الدعوة إلى الخط الأصيل و قائده أمير المؤمنين علي عليه السلام وهو بهذا يفضح بطريقة غير مباشرة الخطوط الأخرى.

وفيما انشغل هؤلاء بعد الرسول ﷺ في جمع الغنائم و حصاد الزرع، عاد علي عليه السلام ـ وأصحابه ـ «و في العين قذى و في الحلق

(١)سفينة البحار ٢٣٧/١.

شجى» و كان الخيار بين أن يصول حيث تدور الدائرة على دين الرسول آخر الأمر، وبين الصبر و التصحيح لما أمكن و لذلك كان في موقع المشير تارة و الناصح أخرى، و كان أصحابه و هم صفوة أصحاب الرسول ﷺ يعصرون في طاحونة الحروب و غيرهم يدّهن في الترف.

و هكذا خاض حذيفة حروب المسلمين في العراق، و همدان، والري، و الدينور، و نهاوند،حيث كان القائد الثاني للجيش بعد شهادة النعمان بن مقرن.

و لّما تولّى المدائن.. و أتت إليه إمارتها، ولم يسع إليها كما يتهالك غيره على إمارة قرية، جاء إليها يسبقه نور إيمانه، و زهده دليل على منهجه، جاء راكبا حماراً عليه برذعة قديمة، و كان غيره من الولاة يأتون في الخيول المطهمة تسبقهم الألوية و المواكب، و تستقبلهم الزينات و أقواس النصر!.

و فيما الناس واقفون سماطين ينتظرون طليعة الموكب الأميري،لينظروا من خلال موكبه و زينته مدى (شخصيته وأهميته)، إذ طلع عليهم حذيفة وحيداً على حماره، يشق الطريق.. والناس يتساءلون:

ــ أين الأمير!! لقد تأخر موكبه..

ــ أما الأمير فلا أعلم و أما حذيفة بن اليمان فأنا.

و تعجب الواقفون.. أهكذا يبلغ بأصحابه الزهد؟!.

«إياكم و مواقف الفتن!»..افتتح حذيفة عهده معهم بهذه الكلمات.سألوه: و ما مواقف الفتن يا أبا عبد الله؟!.

ــ أبواب الأمراء..يدخل أحدكم على الأمير أو الوالي فيصدقه بالكذب و يمتدحه بما ليس فيه..

و بدأ حذيفة حاكماً، على المدائن، يسكن في كـوخ و لا يأخـذ من بيت المال إلاّ مقدار قوت يومه و علف دابتـه..فيمـا كـان آل أبي العاص ـ فيما بعد و أيام الخليفة الثالث ـ يرتعون في بستان قـريش، متخذين مال الله دولاً وعباده خولاً..

و لم يتوقف حذيفة عن الدعوة لخط أهل البيت و سيدهم علـي أمير المؤمنين عليه السلام فقد تحول إلى محور للولاء، يجتمع حولـه أنـصار هذا الخط، ولم يكونوا يستطيعون الحصول على أفـضل مـن حذيفـة ذلك الذي (عرف أسمـاء المنـافقين) أعـداء علـي، فقـد جـاء ربيعـة السعدي إليه يوماً و قال:

ــيا أبا عبد الله إنا لنتحدث عن علي و مناقبه فيقـول لنـا أهـل البصرة إنكم تفرطون في علي.. فهل أنت محدثي بحديث فيه؟!.

أجابه حذيفة: يا ربيعة و ما تسألني عن علي فـو الـذي نفـسي بيده لو وضع جميع أعمال أصحاب محمد في كفة الميـزان منـذ بعـث محمد ﷺ إلى يوم القيامة و ضع عمل علي في الكفة الأخرى لرجح عمل علي على جميع أعمالهم.

فقال ربيعة: هذا الذي لا يقام له و لا يُقعد و لا يحمل!!.

قال حذيفة: يا لُكع و كيف لا يحمل؟! و أيـن كـان أبـو بكـر و عمر و حذيفة (يعني نفسه) و جميع أصحاب محمّد ﷺ يوم عمـرو بن عبـد ودّ و قـد دعـا إلى المبـارزة فـأحجم النـاس كلـهم مـاخلا علي عليه السلام فإنّه برز إليه و قتله الله على يده؟ و الذي نفـس حذيفـة بيده لعمله في ذلك اليوم أعظم أجراً من عمل أصحاب محمـد ﷺ إلى يوم القيامة[1].

(١)بحار الأنوار ٢٠/ ٢٥٧.

و لم يكن حذيفة و هو في المدائن غائبا عن مسرح السياسة حيث كانت المدينة المنورة تهتز على إيقاع المعارضة التي رفدها الثوار المسلمون من سائر البلاد. كان يتابع و يتصل، و يخبر الناس بتجاوزات الحكم، و عندما يُنفى أبو ذر الغفاري على يد الخليفة من مدينة الرسول إلى صحراء الربذة يرسل لحذيفة رسالة يخبره بما صنع به، لأنّه يستريح إلى الانفتاح عليه:

بسم الله الرحمن الرحيم

أما بعد..

يا أخي فخف الله مخافة يكثر منها بكاء عينيك و سهر ليلك و انصب بدنك في طاعة ربك فحق لمن علم أن النار مثوى من سخط الله عليه أن يطول بكاؤه و نصبه و سهر ليله حتى يعلم أنه قد رضي عنه، و حق لمن علم أن الجنة مثوى من رضي الله عنه أن يستقبل الحق كي يفوز بها و ستصغر في ذات الله و الخروج من أهله و ماله و قيام ليله و صيام نهاره و جهاد الظالمين الملحدين بيده و لسانه حتى يعلم أنّ الله أوجبها له، و ليس العالم ذلك دون لقاء ربّه و كذلك ينبغي لكل من رغب في جوار الله و مرافقة أنبيائه..

يا أخي أنت ممن استريح إلى التصريح إليه ببثي و حزني و أشكو إليه تظاهر الظالمين عليّ..إنّي رأيت الجور يُعمل به بعيني و سمعته يقال فرددته، فحُرمت العطاء و سيرت إلى البلاد و غربت عن العشيرة و الإخوان و حرم الرسول صلى الله عليه وآله وسلم و أعوذ بربي العظيم أن يكون هذا مني له شكوى، إن ركب مني راكب، بل أنبأتك أني قد رضيت ما أحب لي ربي و قضاه عليّ و أفضيت ذلك إليك لتدعو الله لي و لعامة المسلمين بالروح و الفرج و بما هو أعم نفعاً و خير مغبة و عقبى.. و السلام.

عندما وصل الكتاب إلى حذيفة، كتب جواباً له:

بسم الله الرحمن الرحيم

فقد بلغني كتابك تخوفني به و تحذرني فيه منقلبي و تحثني فيه على حظ نفسي فقديماً يا أخي كنت بي و بالمؤمنين حفيّاً لطيفاً و عليهم حدباً شفيقاً و لهم بالمعروف آمراً و عن المنكر ناهياً و ليس يهدي إلى رضوان الله إلاّ هو لا إله إلا هو و لا يتناهى من سخطه إلاّ بفضل رحمته و عظيم منّه فنسأل الله ربنا لأنفسنا و خاصتنا و عامتنا و جماعة أمتنا مغفرة عامة و رحمة واسعة، و قد فهمت ما ذكرت من تسييرك يا أخي و تغريبك و تطريدك فعزَّ و الله يا أخي ما وصل إليك من مكروه و لو كان يفتدى ذلك بمال لأعطيت فيه مالي طيبة بذلك نفسي يصرف الله عنك بذلك المكروه، و الله لو سألت المواساة لك ثم أعطيتها لأحببت احتمال شطر ممّا نزل بك من الفقر و الأذى و الضرر، لكنّه ليس لأنفسنا إلاّ ما شاء ربنا يا أخي فافزع بنا إلى ربنا و لنجعل إليه رغبتنا فإنه قد استحصدنا و اقترب الصرام..[1]

و لم يكن حذيفة يخفي موقفه المعارض لخلافة الخليفة الثالث، و سيطرة البطانة الأموية على مقدرات الأمة، ذلك أنه يرى أن هذه الفئة التي كانت تخفي نفاقها في السابق أيام رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أصبحت اليوم هي الظاهرة و غيرها من المؤمنين المخلصين هم المطرودون و المشرّدون و المقمعون!!.

و كان لابد لتلك الضغوط أن تنتج الانفجار، و بالفعل فقد تجمع الثائرون من كل صوب، و فيما كان أمير المؤمنين علي عليه السلام يحاول الإصلاح بأقل الخسائر كان مروان بن الحكم طريد الرسول

(١)بحار الأنوار٢٢/٤٠٩.

صلى الله عليه و آله و سلم الذي عاد إلى المدينة ـ بـأمر الخليفـةـ و أصبح رئيس وزراء الخليفة و المتصرف العام، كان يدفع الأمور باتجاه الحسم و تصفية الثوار تصفية عامّة!! الأمر الذي دفع بالحدث أقصى نهايته و اقتحم الثائرون قصر الخليفة و قتلوه..

و جاءت الناس كهيم عطاش ظمئت زماناً إلى مورد علي بن أبي طالب عليه السلام، و تداكت عليه طالبة قيامه بالأمر بعد أن أزيح عنه هذه الفترة الطويلة.. و هكذا كان، فلم يكن هذا الأمر يصلح إلا له، إذ لا فتى سواه وبدأ عمله باستئصال السرطانات الخبيثة الـتي زرعـت في جسد الأمة خلال الفترة المنصرمة، على شكل ولاة ظلمـة، وقـوانين جائرة وأموال مصادرة.. فيمـا ثبّـت الـولاة الأكفّـاء.. وفي طليعتـهم حذيفة بن اليمان فقد كتب إليـه بعهـده، وإلى أهـل المـدائن وأمـره بقراءته عليهم.

بسم الله الرحمن الرحيم

من عبد الله علي أمـير المـؤمنين إلى مـن بلغـه كتـابي هـذا مـن المسلمين.. سلام عليكم فإني أحمـد إلـيكم الله الـذي لا إلـه إلا هـو وأسأله أن يصلي على محمد وآله..

فأما بعد فإن الله تعـالى اختـار الإسـلام دينـاً لنفـسه وملائكتـه ورسله أحكاما لصنعه وحسن تدبيره ونظرا منه لعباده وخص به من أحب من خلقه فبعث إليهم محمدا صلى الله عليه وآله وسلم فعلمهم الكتاب والحكمة إكراما وتفضيلا لهذه الأمة وأدبهم لكي يهتدوا وجمعهم لـئلا يتفرقـوا ووقفهم لئلا يجوروا فلما قضى ما كان عليه من ذلك مضى إلى رحمة الله به حميداً محموداً، ثم إن بعض المسلمين أقاموا بعده رجلين رضوا بهداهما وسيرتهما فأقاما ما شاء الله ثم توفاهما الله عز وجل ثم ولوا بعـدهما الثالث فأحدث أحداثاً ووجدت عليه الأمـة فعـالاً فـاتفقوا عليـه ثم نقموا منه فغيروا ثم جاؤوني كتتابع الخيل فبايعوني فإني أسـتهدي الله

بهداه وأستعينه على التقوى.

ألا وإن لكم علينا العمل بكتاب الله وسنة نبيه عليه السلام والقيام عليكم بحقه و إحياء سننه والنصح لكم بالمغيب والمشهد وبالله نستعين على ذلك وهو حسبنا ونعم الوكيل. وقد وليت أموركم حذيفة بن اليمان وهو من أرتضي بهداه وأرجو صلاحه وقد أمرته بالإحسان إلى محسنكم والشدة على مريبكم والرفق بجميعكم أسأل الله لنا ولكم حسن الخيرة والإحسان ورحمة الله الواسعة في الدنيا والآخرة.. و السلام.

كان هذا الكتاب على اختصاره ـ نظرة تحليلية على أحداث الأمة خلال خمسة وثلاثين عاماً، بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم. وبالرغم من أن حذيفة كان في أواخر أيام حياته إذ أنه توفي بعد أربعين يوماً من خلافة أمير المؤمنين، وكان مريضاً، إلا أن الحدث قد بعث فيه الروح والنشاط فها هو يرى عودة الأمور إلى نصابها، قبل أن يموت.. فقام في الناس خطيباً:

الحمد لله الذي أحيا الحق وأمات الباطل وجاء العدل ودحض الجور وكبت الظالمين.

أيها الناس.. إنما وليكم الله ورسوله وأمير المؤمنين حقاً حقاً وخير من نعلمه بعد نبينا صلى الله عليه وآله وسلم وأولى الناس بالناس وأحقهم بالأمر وأقربهم إلى الصدق وأرشدهم إلى العدل وأهداهم سبيلاً وأدناهم إلى الله وسيلة وأمسهم برسول الله رحماً.

أنيبوا إلى طاعة أول الناس سلماً وأكثرهم علماً وأقصدهم طريقة وأسبقهم إيماناً وأحسنهم يقيناً وأكثرهم معروفاً وأقدمهم جهاداً وأعزهم مقاماً أخي رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وابن عمه وأبي الحسن والحسين وزوج الزهراء البتول سيدة نساء العالمين، فقوموا أيها الناس فبايعوا على كتاب الله وسنة نبيه فإن لله في ذلك رضى ولكم

مقنع وصلاح، والسلام..

وقام الناس فبايعوا بأجمعهم..

ولم يبق أمام حذيفة بعد أن رأى حياة الحق وموت الباطل وقدوم العدل، ما ينتظره فيكفيه هذا المجد الذي سطره في كتاب حياته منذ أن التقى بالرسول صلى الله عليه و آله و سلّم بعد بدر، وحتى اليوم، وبينهما سنوات من المعرفة والوعي والولاء لخط الإسلام الأصيل والشدة على المنافقين والخطوط المائلة، وها هو اليوم يشهد إمارة المؤمنين لعلي عليه السلام فعلاً بعد كونها له واقعاً.

«أخرجوني.. وادعوا الصلاة جامعة».. قال لابنيه سعد وصفوان.

ولما أخرجاه إلى المسجد، وكان ثقيلاً عليلاً، لا ينتظر أن يبقى لجمعة أخرى، قال: أيها الناس.. أوصيكم بتقوى الله والطاعة لأمير المؤمنين علي بن أبي طالب، فو الله أنه لعلى الحق آخراً وأولاً، وإنه لخير من مضى بعد نبيكم وخير من بقي إلى يوم القيامة..

ولما أعيد إلى منزله، التفت إلى ابنيه قائلاً:

كونا معه فسيكون له حروب كثيرة فيهلك فيها خلق من الناس فاجتهدا أن تستشهدا معه فإنه والله على الحق ومن خالفه على الباطل.

وأغمض عينيه..

وفرح المنافقون فقد مات من يعرف أسماءهم ويحفظ ملفاتهم..

لكن بقي مقياس الإيمان والنفاق:

«يا علي لا يحبك إلا مؤمن ولا يبغضك إلا منافق».

بلال بن رباح الحبشي

توفي سنة ٢٠هـ

كان يتوقع الكثير، ولكنه لم يتوقع هذا المقدار. ذلك أنه لم يكن يخفى عليه مشاعر الحقد الذي يحملها كفّار قريش تجاه محمد1 ودعوته الجديدة، وهم وإن كانوا لا يخفون إعجابهم بشخصية محمد فهو أشهر رجل بمكة في صدقه وأمانته واستقامته إلاّ أنهم لا يستطيعون أن يتركوه، «ليستبدل آلهتهم الثلاثمائة بإله واحد، ويجعلهم مع عبيدهم على قدم المساواة، ثم يجرهم ليضعوا رؤوسهم على الأرض»!!.

إنه يسمعهم في كل يوم، يتداولون أمرهم، وقلقهم يتزايد من تعاظم أمر محمد، وانتشار دعوته.. ولم يكن هذا الأمر ليعينه من قريب ولا بعيد قبلئذ، ولكنه اليوم وقد طرقت الدعوة قلبه بعنف، لا يستطيع أن يتجاهلَ الأمر، أو يغضي عليه، هبه يستطيع أن يصمّ أذنيه عن سماع أحاديثهم، فهل يستطيع أن يسيطر على فكره وضميره؟!.

إنه يرجع بفكره إلى كل الأيام التي خلت من عمره، ليسأل نفسه، فيم كان؟! وإلى أين يسير لو استمرّ على تلك الطريقة!! عبد كسائر العبيد، يفرح حين يفرح سيده، ويحزن حين يبكي! حين يعبد بنو جمح (هبل)، فأن عليه أن يسجد لهبل ولو قدر له أن يكون مملوكاً لثقيف لعبد صنم (الطاغية)!!.

ومستقبله! وهل يجوز لعبد أن يفكر في المستقبل؟!

إنه يعيش صراعاً يخاف من نتيجته فهو يخشى على نفسه من غضب الآلهة!! ولكن ما الذي تستطيع هذه الآلهة أن تنفع أو تضرّ؟! هل تتحرك الأحجار؟!.

❀❀❀

لم يستطع بلال تلك الليلة النوم، لشدة ضغط هذه الهواجس وغدا وعيناه متعبتان من السهر مع الفجر إلى الكعبة، وانتصب أمام (هبل) وتداعى في ذهنه كل صور الاستغلال القرشي والاستعباد للناس، وتعذيب المؤمنين بمحمد، وكل ذلك باسم هبل وبباطل هبل..

أي إله هذا الذي يسمح لإنسان باستعباد أخيه الإنسان وتحميله ما لا يطاق، حتى يموت!!.

ـ أنت هبل!! وبصق في وجهه بكل غضب..

أيها الإله العاجز عن نصر نفسه، كيف تنفع غيرك.. ماذا لو كسرت يديك.. هل تملك لنفسك دفعاً؟!.

وانصرف إلى منزل سيده أمية، ولم يشعر أن عيناً كانت ترقبه في الظلام مسجلة ماذا قال وماذا صنع!.

تغيرت سحنة أُمية وهو يسمع ما جرى: هل أنت على يقين مما قلت؟! سأل من أبلغه.

ـ نعم بكل يقين.

عاد إلى منزله وقصد غرفة بلال، وقبل أن يدخل سمع صوتاً هادئاً، يردد كلمات جديدة على سمعه.

ـ ما الذي تقرأ؟!

ـ كلام الله.

ـ أي إله؟! ومتى تكلم؟!

ـ لقد أنزل الله على عبده الكتاب والحكمة.

ـ أصبوت إلى شخص ساحر؟! وكفرت بآلهتنا؟!.

ـ ما كفرت ولكن الله هداني إلى الصراط المستقيم.

لم يستطع أمية أن يتحمل ذلك، رآها (وقاحة) لا تغتفر فمتى كان العبد يستطيع الرد على سيده، وأهوى بصفعة على خد بلال.

ـ متى كان العبد يتبع هوى نفسه؟! ويؤمن بإله غير إله سيده؟! أنت عبدي، وملكي، والدين الذي أتبعه هو دينك أفهمت؟!.

وطال الجدال.. وبلال ثابت على عقيدته، أنهاه أمية بقوله:

ـ أقسم باللات والعزى.. لئن لم تترك هذا الدين لأعذّبنك حتى تموت..

❁❁❁

وبدأ مشوار بلال مع التعذيب، ولم يكن يتوقع هذا المقدار، أمر أُمية عبيده بتجريده من ملابسه ثم شدّ الوثاق في عنقه، وأمر العبيد أن يسحبوه في مناطق مكة، وكلما مروا على جماعة سألوهم عن سبب سحبه، فيقال: صبأ إلى دين محمد، فيتبرع هؤلاء بضربه وشتمه، ولم يكن ينطق غير كلمتين:

ـ أحد. أحد..

وكانت على قلوبهم أحدّ من المواسي.. وكلما طلب منه أُمية أن يتكلم بكلام آخر كان يقول: والله لو أعلم كلمة أخرى أشدّ عليهم منها لقلتها..

كان أُمية يأمر بجلده بالسياط ولكن كأنه كان المعذب والمجلود، فطلب العون من أبي جهل، وكان أشدّ الكفّار على المؤمنين وجاء

هذا ليجرّب حظه، قائلاً لأمية: إنه سوف يسمعه صوت استغاثة (العبد) والتماسه العفو..

ـ الجو هذا اليوم حار جداً، والشمس فيه تصهر الوجوه.. سوف ألبسه أدرعاً من الحديد، ثم نقيده في حفرة ونتركه هكذا.

وهكذا كان..

كانت الشمس والحرارة الشديدة وضغط أدرع الحديد قد حقن الدم في جسم بلال، وبدا ذلك واضحاً في عينيه اللتين أصبحتا قطعة حمراء وكان أبو جهل ومعه أمية وآخرون، ينتظرون في الظل أن يسمعوا صوت استغاثة بلال، ولم يتكلم.. وضاق صبرهم، أمر أبو جهل عدداً من غلمانه أن يحملوا صخرة عظيمة ويلقوها على صدره، وأزاحوها بصعوبة، وألقوها على صدره، كان يغيب عن الوعي، فيما انفرجت شفتاه تبحث عن الكلمات، فرح أبو جهل، قام من مكانه ليسمع الاستغاثة والاعتذار، وقرب أُذنه من شفتي بلال، الذي صفعه بكلمة: أحد.. أحد..

ويمر ورقة بن نوفل وكان قد تنصّر وقرأ الكتب السابقة فيرى هذا التعذيب وذلك الصمود فيرى فيه صورة الأنبياء الصابرين على أذى قومهم.فيقول: لئن مات على هذه الحالة ليتخذن قبره مزاراً وموضع تنزلٍ للرحمة والحنان الإلهي.

❁❁❁

أصبح بلال الآن يمتلك حريته وقراره بعد أن اشتراه أبو بكر بأمر الرسول وأعتقه.. ولكن لم تنته أيام المحنة، فقد ضاعفت قريش من إيذائها ومضايقتها لاتباع الرسول استمرّت على ذلك.. غير أن ذلك لم يكن ليعادل الراحة النفسية التي كان يشعر بها بلال وهو يجلس إلى جانب الرسول ﷺ، فقد كان يجد نفسه، ويعرف ذاته،

ويتحسس بنعم الله التي أنعمها عليه.

وأمر الرسول أصحابه بالهجرة، وكان بلال في طليعة من هاجر إلى المدينة مع عمار بن ياسر.. غادر بلال موطن صباه الذي يحبه وإن كان قد كره أهله من الكفار وكرهوه.. لكن يبقى أن المرء مهما ضاق، يشعر وكأن مسقط رأسه جزء من وجوده.

في المدينة قدمها الرسول ﷺ تبوأ بلال منزلاً بين أصحاب الرسول فقد أصبح خازنه، على بيت المال كذلك فهو الداعي إلى عبادة الله، اختص بلال بلقب (مؤذن رسول الله)، فما أن قدم رسول الله حتى بني المسجد، وصعد بلال على مرتفع منه.. وتنفس الصعداء.. هاهو يستطيع أن يدعو جهاراً إلى عبادة الله والصلاة له، من دون أن يخشى أحداً، ورفع صوته:

الله أكبر.. الله أكبر.. الله أكبر.. الله أكبر.

أشهد أن لا إله إلاّ الله.أشهد أن لا إله إلاّ الله.

أشهد أن محمداً رسول الله.. أشهد أن محمداً رسول الله.

حي على الصلاة.. حي على الصلاة.

حي على الفلاح.. حي على الفلاح.

حي على خير العمل.. حي على خير العمل..

الله أكبر..الله أكبر.

لا إله إلاّ الله.. لا إله إلاّ الله.

لكَم يبعث السكينة صوت بلال في النفوس..

لم يكن يعكر صفو المسلمين في المدينة سوى ذكرياهم عن الوطن البعيد والمال المستلب.. وإذا كان قرب الوطن عسيراً فإن إمكانية استرداد شيء من المال المستلب قد قربت بمجيء قافلة أبي سفيان

حاملة أموال مكة.

وكانت مطاردة المسلمين لتلك القافلة ـ بالرغم من أنها نجت ـ فتيل معركة بدر.. وهكذا تقابل المسلمون القلة عدداً الكثرة إيماناً مع قريش بخيلائها وغرورها وأفلاذ أكبادها.

ودارت الدائرة على قريش، وبلال يجول في المعركة وكأنه يبحث عن رأس خاص بين الرؤوس التي يقتطفها، ومن بعيد لمح أميّة بن خلف، يده في يد عبد الرحمان بن عوف، وكانا صديقين في مكة وقد(أسره) عبد الرحمن باتفاق مع أمية على أن يستلم الثمن فهي خير له من الأدرع التي جمعها من ميدان المعركة، وكما الصقر ينقض على فريسته، أقبل مسرعاً وهو يصيح:

ـ أُمية بن خلف.. رأس الكفر لا نجوت إن نجا.. وحمل عليه وعبد الرحمان يدافعه قائلاً: إنه أسيري يا بلال..

فصاح بلال:أيها المسلمون.. أُمية بن خلف رأس الكفر لا نجوت إن نجا، وأحاطوا به وبابنه، وهبروهما بأسيافهم حتى فرغوا منهما[1].

❀❀❀

تتابعت الوقائع بين رسول الله ﷺ وكفّار قريش، ودعوة الإسلام تغدو من نصر إلى آخر، إلى أن أذن الله بالفتح الأكبر..

مزيج من المشاعر والأحاسيس يغمر قلب بلال.. أصحيح إنه سائر إلى مكة؟! الوطن الذي أُبعد عنه ثمان سنوات؟! ولا يزال قلبه ينبض بحبه، وكأن لا أرض في الدنيا غير مكة؟! ترى ماذا سيكون رد فعل قريش التي ذاقت غب عملها في بدر و الخندق؟! هل

---

(١)سيرة ابن هشام ٢/ ٢٨٥.

سيسمحون لهم بالدخول هذه المرة بعد أن منعوهم من الدخول حجاجاً في السنة الماضية؟! ووقعت وثيقة الحديبية.

ها هم على أبواب مكة والليل قد أسدل غطاءً أسود على الأحياء لترقد.. رسول الله يأمر المسلمين، بأن توقد كل جماعة ناراً، وهكذا أصبح الرائي يرى الأفق من مكة وقد اشتعل نيراناً..

وسقطت قريش.. وفتحت مكة، ولم ترق قطرة دم ـ إلاّ من أراد لدمه ذلك ـ هذا الفتح هو الأكبر على الطريقة النبوية، فقد فتح رسول الله القلوب، قبل الأرض. وعهد إلى أصحابه ألا يقاتلوا أحداً إلاّ دفاعاً عن أنفسهم.

ودخل رسول الله مكة، وطاف سبعاً على راحلته، وقد طأطأ برأسه على سرج الناقة، ودعا بلالاً، وأمره أن يؤذن.. وصعد بلال على ظهر الكعبة..قد امتلأ سروراً فهاهي مكة، تسمع لأول مرة نداء الصلاة من شفاه المنتصرين بينما دخل الكعبة وصلّى ركعتين، وحمل عليّاً عليه السلام لكي يسقط الأصنام.

❁❁❁

أقسم بلال أن لا يؤذن لأحد بعد الرسول، ولم يكن ذلك فقط بسبب موقفه من الخلافة، واعتبار إذانه بمثابة تدعيم لها ولم يكن يريد ذلك، وبالرغم من أن أبا بكر طلب منه شخصياً أن يبقى إلى جانبه مؤذناً كما كان للرسول، إلاّ أن بلالاً، قال له بصراحة:

ـ إن كنت قد اعتقتني لنفسك فهآنذا وإن كنت أعتقتني لله فدعني لله.

وبالرغم من أنه تعرض لغضب عمر بن الخطاب على موقفه هذا إلاّ أنه لم يستجب، وفضّل الذهاب إلى الشام للجهاد والمرابطة على الثغور..

وذات يوم وكانت الزهراء في مرضها بعد وفاة أبيها وقبل ذهابه، قد قالت أشتهي أن أسمع صوت مؤذن أبي بالإذان، فبلغ ذلك بلالاً، فأخذ في الإذان، فلما قال: الله أكبر، ذكرت أباها وأيامه فلم تتمالك فلما بلغ إلى قوله: أشهد أن محمد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، فشهقت فاطمة وسقطت لوجهها وغشي عليها فقال الناس لبلال: أمسك يا بلال فقد فارقت ابنة رسول الله الدنيا، فظنوا أنها قد ماتت، فقطع إذانه ولم يتمه، وأفاقت فاطمة، وسألته أن يتم الإذان فلم يفعل، وقال لها: يا سيدة النساء إني أخشى عليك مما تنزلينه بنفسك إذا سمعتِ صوتي بالإذان، فأعفته عن ذلك[1].

في مدينة عمواس بالشام...

وكان آخر عهد الدنيا بعد أن ذاق علقم الجاهلية فيها، وسلوى الإسلام والهداية..

عندما رأى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في المنام في لباس يشع بياضاً ونورانية يسلم عليه بلال وقد ملأ السرور اهابه بينما عاتبه الرسول:

ـ لماذا كل هذا الجفاء يا بلال؟! ألا تريد أن تراني بعد الزيارة؟!.

استيقظ بلال من نومه، وهو يردد: لماذا كل هذا الجفاء يا بلال.. ألا تريد أن تراني؟!.

رأى في ذلك المنام دعوتين الأولى للزيارة، والأخرى ليكون معه وقريباً منه، وبالفعل فقد شد حزام السفر زائراً قبر رسول الله، وليعود مرة أخرى إلى الشام حيث سيبدأ الرحلة الثانية ليكون قرب رسول الله في الجنة...

---

(١) تنقيح المقال ١/ ١٨٣.

فاطمة بنت أسد بن هاشم

توفيت بعد هجرة الرسول ﷺ بالمدينة

«وقد تواترت الأخبار أن فاطمة بنت أسد ولدت أمير المؤمنين علي بن أبي طالب كرم الله وجهه في جوف الكعبة»[١]

«وما أحرى بإمام الأئمة أن يكون وضعه فيما هو قبلة للمؤمنين؟ وسبحان من يضع الأشياء موضعها وهو أحكم الحاكمين»[٢]

❁❁❁

كما وردة محمدية فتحت أهدابها مستقبلة قطرة ندى تضطم عليها برفق، انشق الجدار بهدوء وانسابت فاطمة بما حملت ـ والله أعلم بما حملت ـ في وسط الجدار لتجد نفسها في داخل بيت الله حيث مجتمع القدس الإلهي، ومدار القلوب المؤمنة.

أترى البيت كان يبتسم، وهو يترقب هذه الساعة التي سيكون فيها مهدا لعلي عليه السلام، وموطأ لقدمه؟ فانشق ثغر جداره عن ثغرة طالبا فاطمة للدخول إليه ومباركته بالمولود الأعظم؟

فتق الزهر؟ أم انشق القمر؟ أم عمود الصبح بالليل انفجر؟

---

(١)الحاكم في المستدرك ٤٨٣/٣

(٢)الآلوسي في سرح الخريدة الغيبية

أم أضاء البرق فـالكون ازدهـر؟ أم بدا في الأفق خـرق والتيـام؟

فغدا برهان معراج النبي؟

أم أشار البيت بالكف ادخلـي؟ واطمـئني بالإلـه المفـضـــل؟
فهنـا يولـد ذو العليـا علـــي من به يحظى حطيمـي والمقـــام

وينال الركن أعلى الرتب

دخلت فـاطم فارتـد الـجدار مثلما كان ولم يكـشف ستـــار
إذ تجلى النـور وانجـاب الـسرار عن سنا بدر بـه يجلـو الظـــلام

والورى ينجو به من عطب[1]

❁❁❁

كانت الدهشة قد عقدت ألسنة المجتمعين حول البيت..والجمت ألبابهم، فكيف يمكن للصخر الأصم أن ينفلق إلا عـن عـين موسـى اعجازا؟ وما حال تلك الداخلة فيه؟ هل عرفت أن عليها أن تـدخل وهي الحامل المقرب في شـهرها الأخـير؟ أم أن شـيئا قـد جـذبها إلى الداخل من غير اختيار؟ أهو أمـر رحمـة أم علامـة عـذاب؟ وكيـف تصنع لو فاجأها المخاض وهي في الداخل؟ من سيلي أمرها؟ كيـف ستأكل ومن أين ستشرب؟

وتنادوا أن أخبروا شيخ الأبطح أبا طالب، وافتحوا الباب!

ـ يا للهول!! هذا المفتاح يدور في الفراغ، ولم يحدث مـن قبـل؟ اقتحموا الباب أو اخلعوه..وإلا هلكت بنت أسد..

وتبسم أبو طالب.. ونهاهم عن ذلك ؛ فإن الأمر إلهي الـسّمات،

(١)من قصيدة للسيد علي النقي اللكنهوي الغدير

فلا ينفع فيه المحاولة، وإن الذي شق لها الجدار، وأغلق عليها الباب كفيل بأمرها، فلا داعي للقلق.

❁❁❁

لقد أضيف إلى تلك الأسرة الهاشمية مولود جديد، شاء الله له أن يكون فيما بعد أكرم مخلوق بعد نبيه، وان يكون معجزة من معاجز الرسول ناطقة، وهو علي أمير المؤمنين عليه السلام. ولقد صدق أبو طالب عندما قال لزوجته فاطمة، عندما أخبرته قبل ثلاثين عاما مهنئة إياه ومبشرة بولادة النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم من آمنة بنت وهب وقد حضرت ولادته، وتعجبت مما رأت من الارهاصات والأنوار التي رافقت تلك الولادة المباركة، فجاءت تقص على أبي طالب ما رأت، فأخبرها أنها لو انتظرت سبتا (أي مدة من الدهر) فإنه سيأتيها بوصيه!!

فكان من نعم الله سبحانه على هذه السيدة الجليلة أن تكون مربية وحاضنة للنبوة والإمامة في نفس الوقت، وأم النبي (كما قال صلى الله عليه وآله وسلم عند وفاتها) ووالدة علي.

توفي عبد الله والد النبي صلى الله عليه وآله وسلم، وبعد سنوات ما لبثت آمنة أمه أن تبعت زوجها إلى لقاء الله، وكان يمكن أن يبقى محمد، مهيض الجناح يتيما، ولكن الله شاء له أن يأوي إلى ركن شديد ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيماً فَآوَى﴾، فكان في كنف جده عبد المطلب الذي كان يعرف فيه النبوة، ويرى في ما يحيط بحفيده دلائل ذلك.«فكان يوضع لعبد المطلب فراش في ظل الكعبة وكان بنوه يجلسون حول فراشه ذلك حتى يخرج إليه، لا يجلس عليه أحد من بنيه إجلالا له، فكان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يأتي وهو غلام حتى يجلس عليه فيأخذه أعمامه ليؤخروه عنه فيقول عبد المطلب إذا رأى ذلك منهم: دعوا ابني فو الله إن له

لشأناً، ثم يجلسه معه على فراشه ويمسح ظهره بيده»[١]

وعندما بلغ صلى الله عليه وآله وسلم الثامنة من عمره، انتقل جده إلى لقاء ربه، بعد أن اختار له أبا طالب ليكفله مع أن أبا طالب لم يكن الأكبر سنا من ولد عبد المطلب، ولا الأكثر مالا، ولكنه كان الأكثر معرفة بمقام ابن أخيه عند أبيه عبد المطلب، وصاحب المنزلة العليا في نفس أبي طالب. وهكذا كان فقد أصبح النبي صلى الله عليه وآله وسلم في بيت عمه أبي طالب، وبيت فاطمة بنت أسد.

وجاء أبو طالب يوصي زوجته فاطمة بالاهتمام البالغ بالنبي المرتجى بعثته، ولزوم رعايته، ذلك أن ابا طالب كان «يحبه حبا شديدا لا يحبه ولده، وكان لا ينام إلا إلى جانبه ويخرج فيخرج معه، وصُب به أبو طالب صبابة لم يصب مثلها بشيء قط، وكان يخصه بالطعام..»[٢] فقال لها أبوطالب: اعلمي أن هذا ابن أخي وهو أعز عندي من نفسي ومالي فتبسمت فاطمة من قوله وكانت تؤثره على سائر أولادها وكان لها عقيل وجعفر فقالت له: توصيني في ولدي محمد وإنه أحب إلي من نفسي وأولادي؟ ففرح أبوطالب بذلك فجعلت تكرمه على جملة أولادها ولا تدخر وسعا في ذلك.

❀❀❀

تعتبر عاطفة الأمومة والعلاقة بين الأم وولدها من أعظم العلاقات وأشدها قوة، فإنك تجد الأم مستعدة للتضحية حتى بنفسها لأجل سلامة ولدها، ولا يمكن أن تقدم عليه أي كائن، ولعل هذه الغريزة الموجودة في داخل كل أم، هي التي تنتهي إلى بقاء النوع فلولاها لكان النسل ينتهي مع تعرضه للأخطار والأعراض.

---

(١)البداية والنهاية ج ١عن سيرة ابن اسحاق
(٢)المصدر نفسه

لكن هذه القاعدة الموجودة في عالم الإنسان، تتوقف عند فاطمة بنت أسد، لتحل معها القاعدة الإيمانية التي تقول «لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من أبيه وأمه، وولده» كما قال الرسول ﷺ واصفا الدرجة العليا من الإيمان.

وكانت فاطمة في ذلك مثلا ؛ فقد كان في دار أبي طالب نخلات، وكانت تقوم في الصباح الباكر قبل أن يفيق أبناؤها لتلتقط جيد الرطب، وتخبئه لرسول الله ﷺ ، فإذا خرج أبناؤها قامت وأخرجت ما هيأته لرسول الله، واتفق ذات يوم ما روته نفسها، تقول: " لما توفي عبد المطلب أخذ أبو طالب النبي ﷺ عنده، لوصية أبيه به، وكنت أخدمه، وكان في بستان دارنا نخلات وكان أول إدراك الرطب وكنت ألتقط له حفنة من الرطب فما فوقها، وكذلك جاريتي فاتفق يوما أن نسيت أن ألتقط له شيئا ونسيت جاريتي أيضا، وكان محمد ﷺ نائما، ودخل الصبيان وأكلوا كل ما سقط من الرطب، وانصرفوا، فنمت ووضعت الكم على وجهي حياءً من محمد ﷺ ، إذا انتبه. فانتبه محمد، ودخل البستان فلم ير رطبة على وجه الأرض فأشار إلى نخلة، وقال: أيتها الشجرة أنا جائع.. فرأيت النخلة قد وضعت أغصانها التي عليها الرطب حتى أكل منها ما أراد، ثم ارتفعت ألى موضعها. فتعجبت من ذلك..وكان أبو طالب غائبا، فلما أتى وقرع الباب عدوت إليه حافية وفتحت الباب وحكيت له ما رأيت، فقال: هو إنما يكون نبيا، وأنت تلدين له وزيرا بعد يأس. [1]

وكان يقل الماء حينا فلا يكفي لغسل وتنظيف جميع الأبناء فكانت توفره للرسول، ويصبح أبناؤها من غير غسل ولا تدهين بينما يصبح (محمد) دهينا.

---

(١)الغدير ٣٩٨/٧.

❀❀❀

وبعث رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم نبيا، وقد كانت ترى من البركات في منزلها قبل ذلك ما يعرّفها، عظيم منزلته عند الله، فما لبثت أن آمنت بنبوته، وكانت الفرد الحادي عشر ومن أوائل الذين آمنوا برسول الله، ويشير بعض المؤرخين هنا إلى أنها آمنت بالنبي بدعوة أبي طالب زوجها[1]، الذي كان قد دعا قبلها جعفرا ابنه ليلتحق بركب الرسول. ومن المضحك بعد ذلك قول بعض الحاقدين على الإمام علي عليه السلام أن أبا طالب لم يؤمن وأنه في نار جهنم، وقيامهم بوضع أحاديث عن رسول الله مفادها أنه في ضحضاح من نار كما زعموا.

لقد كانوا يريدون هدم شخصية الإمام علي فحاولوا نسبة الكفر لأبيه، بينما كان إقرار رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم نكاح أبي طالب، وبقاء فاطمة بنت أسد زوجة له دليلا على إيمان الزوجين فإنه كان مأمورا أن لا يقر مؤمنة تحت كافر، كما يقوله الإمام زين العابدين علي بن الحسين عليه السلام، فقد سئل: أكان أبو طالب مؤمنا؟ قال: نعم. فقيل له: إن هاهنا قوما يزعمون أنه كافر.

فقال عليه السلام: واعجبا كل العجب! أيطعنون على أبي طالب أو على رسول الله؟ وقد نهاه الله تعالى أن يقر مؤمنة مع كافر في غير آية من القرآن، ولا يشك أحد أن فاطمة بنت أسد رضي الله تعالى عنها من المؤمنات السابقات، فإنها لم تزل تحت أبي طالب حتى مات أبو طالب رضي الله عنه.[2]

وبقيت في مكة إلى أن توفي ابو طالب رضوان الله عليه، وهاجر رسول الله بعد وفاة أبي طالب حيث لم يبق له في مكة ناصر، إلى

---

(١)شرح النهج لابن ابي الحديد ١٣٢٧٢.
(٢)الغدير ٣٨٩/٧.

المدينة، مخلفا علي بن أبي طالب لأداء أماناته، وإعادة ودائع القرشـيين التي كانت عند رسول الله، وأعلن على الملأ من قـريش، أنـه مغـادر بعد ثلاث فليأت من له أمانة عند النبي ﷺ، وبعد أن أدى أمانـات النبي، وكان قد أرسل إليه أبا واقد الليثي يأمره أن يوافيه بعـد ثلاثـة أيام بالفواطم، فخرج علـي عليه السلام ومعـه رحـل رسـول الله ومنـهم فاطمة الزهراء، وفاطمة بنت أسد، وفاطمة بنت حمزة وفاطمـة بنـت الزبير بن عبد المطلب، والتحق مع هؤلاء جمع من ضعفاء المسلمين.

وكبر على كبرياء قريش هذا التحدي العظيم، واحمرت أنـوفهم غضبا، فحاولوا منع علي والظعن الخارج، وأرسلوا إليـه ثمانيـة مـن مقاتليهم الأشداء لإجباره على العودة ومنعه من المسير، وكان علـى رأس هؤلاء عبد طويل القامة ضخم العضلات الذي أقبـل متوعـدا عليا عليه السلام يأمره بالرجوع بالنساء، فقال علي: فـإن لم أفعـل؟ قـال: لترجعن راغما أو لنرجعن بأكثرك شعرا (رأسه) و أهـون بـك مـن هالك!

وأهوى جناح بسيف كأنه شعلة من نار على علي عليه السلام وكـان راجلا، فراغ عن ضربته وقبل أن يعتدل على ظهر جواده كان سيف علي عليه السلام قد شق رأسه حتى وصل إلى عاتقه، ووقع من على ظهـر فرسه كأنه قطعة جبل. ثم شد على الباقين ففروا قـائلين: أغـن عنـا نفسك يا ابن ابي طالب.

فقال علي: فإني منطلق إلى ابن عمي رسول الله بيثرب فمن سره أن أفري لحمه وأريق دمه فليتبعني أو فليدن مني[1]

وهكذا كانت فاطمة من الـسابقات إلى الإيمـان، والـسابقات إلى الهجرة.

---

(١)الصحيح من سيرة النبي ٤ /٨٩.

ووصلت إلى المدينة، حيث تأسيس الدولة الإسلامية الأولى، في ظل قيادة الرسول الأمين ﷺ، وبمساعدة خلص أصحابه، وفي طليعتهم أمير المؤمنين، وإذا بعلي يأتي ذات يوم لرسول الله باكيا، فيسأله النبي، ويجيب علي: لقد ماتت والدتي!، فاستعبر النبي ﷺ، وقال: بل ووالدتي فقد كانت تجيع أولادها وتشبعني وتشعث أولادها وتدهنني. وأمر بلالا وبعض الأصحاب بحفر القبر، وإخباره بعد الانتهاء من الحفر، ولما غسلت وكفنت لفها رسول الله في قميصه، ودخل قبرها وكان يأخذ بيده تراب لحدها، فلما سواه اضطجع في القبر قليلا ثم خرج.

فقيل: يا رسول الله رأيناك صنعت شيئا لم تصنعه بأحد قبلها! فقال: ألبستها قميصي لتلبس من ثياب الجنة، واضطجعت في قبرها ليخفف عنها من ضغطة القبر فإنها كانت من أحسن خلق الله صنعا بي بعد أبي طالب[1].

رحمة الله على بنت الأسد أم الليث.

(١)بحار الأنوار ١٧٩/٣٥.

خديجة بنت خويلد

توفيت بعد البعثة بعشر سنوات وعمرها ٦٥ سنة

﴿لا يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ أُولَئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِنَ الَّذِينَ أَنْفَقُوا مِنْ بَعْدُ وَقَاتَلُوا﴾

سورة الحديد ١٠

«ما أبدلني الله خيرا منها قد آمنت بي إذ كفر بين الناس وصدقتني إذ كذبني الناس وواستني بمالها إذ حرمني الناس ورزقني الله عز وجل ولها إذ حرمني أولاد النساء»[1].

في حياة الرسالات والدعوات الدينية نلاحظ ثلاثة أنماط للمؤمنين بها:

القسم الأول: هو بمثابة القواعد التي تحفر تحت الأرض، ويستحكم بها البناء، وهذه مهما زادت عمقا وتجذرا في داخل الأرض، زاد البناء استحكاما وقوة.

والقسم الثاني: بمثابة الأعمدة التي ترتفع معتمدة على القواعد، وترفع من فوقها السقوف، وهي التي تكون البناء وتعطيه صورته الحقيقية، و عليها يكون استثمار البناء والاستفادة منه.

والقسم الثالث: بمثابة الأصباغ والألوان، وهذه لا تأثير أساسي لها في أصل البناء ولا في استحكامه، وإنما تعطي للبناء صبغا ولونا

---

(١)مسند احمد ح ٢٣٧١٩.

خارجيا فقط وتعلن عن نفسها وعن البناء.

ومشكلة الناس أنهم يخلطون بين الثلاثة، فيساوون الأول بالأخير أو الثاني بالأخير، بينما ﴿لا يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ أُولَئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِنَ الَّذِينَ أَنْفَقُوا مِنْ بَعْدُ وَقَاتَلُوا﴾. البارزون في الزحام، والمتهالكون على الأسماء، والألوان، والذين لهم في كل عرس قرص، وفي كل موقف عملي لهم كلام كثير..

خديجة المباركة[1] كانت من أجلى مصاديق القسم الأول، فهي بمقدار ما عملت ـ وما أدراك ما عملت ـ لم تكشف عن تلك الأعمال غطاء السر، ولم تتحدث عن نفسها ولا عن حب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لها كما فعل غيرها.

خمسة وعشرون عاما حافلة بالأحداث ومليئة بالقضايا، منها عشرة أعوام بعد بعثة النبي صلى الله عليه وآله وسلم، وخديجة معه في كل مواقفه، تؤيده وتدعمه، وتعطيه صفوة مالها..كم كان هذا المال مباركا به ينعش الله فقراء المسلمين في ذلك الوقت الذي كان بعضهم لا يجد قوت وجبته، وبه يحرر العبيد المؤمنون الذين كانوا عرضة للهلاك تحت أيدي جلاديهم، ولم ينقل التاريخ لنا أن خديجة قد تكلمت يوما عن هذا الأمر، بينما نقل عن بعض المسلمين من (أهل الألوان والأصباغ) أنهم كانوا إذا فعلوا خيرا علقوه على رقابهم ومشوا به بين الناس وربما منّوا على من فعلوا لهم ذلك الخير!!

ولهذا لم يكن غريبا أن تبقى ذكرى خديجة في قلب النبي، وذكر خديجة على لسانه، إلى ما بعد الهجرة أي بعد وفاتها بأكثر من خمسة عشر عاما مع وجود عدد غير قليل من النساء معه، ولكنه قد رُزق

---

(١)ورد في الروايات أن الله قد لقبها بالمباركة وأي بركة أعظم من كون نسل الرسول لم يستمر الا منها ، فهي أم الكوثر .

حب خديجة. كما قال صلوات الله عليه.

خديجة الطاهرة

الالتزام في المجتمع الطيب شيء ليس بالعسير، والفضيلة في محيط طاهر أمر قد يستطيعه الكثير، لكن الالتزام الديني في مجتمع الانحراف، والتمسك بالطهر في مجتمع الجاهلية أمر صعب، وفاعل ذلك ينبغي تقديره باعتبار أنه يسير نحو القمة مع أن الموج يخالف اتجاهه، ويقاوم مسيرته الصاعدة. وخديجة بنت خويلد عليها السلام كانت من هذا النوع، فالمجتمع الذي عاشت فيه كان محيطا موبوءا بالمعصية والانحراف، وكان أمر البغاء والزنا شيئا لا يتورع عنه كبار القوم في قريش فما ظنك بصغارهم، وكانت ذوات الرايات جزءا من النسيج الاجتماعي المألوف، لكن المعدن الطيب لهذه المرأة الصالحة ورجحان عقلها إذ انه «كمل من الرجال كثير ولم يكمل من النساء إلا أربع إحداهن خديجة» كما هو مفاد حديث لرسول الله جعلها تسلك طريق الكمال والفضيلة والطهر حتى لقد لقبت في أيام الجاهلية، وقبل مجيء الإسلام بالطاهرة.

وفي هذا الطريق الطيب نراها عليها السلام تبحث عن طاهر تعيش معه، وكان قد ملأ إهابها إعجابا ما تسمعه عن محمد بن عبد الله، هذا الشاب المتميز في المجتمع المكي، والذي لا يشبه أحدا ولا يشبهه أحد، في كمال خُلقه وفي مفارقته للجو العام الجاهلي السائد في المجتمع المكي، وبدأت تفكر في كيفية مناسبة للتقرب منه، وهذا ما يشير إلى كمال عقلها فإنها لو استسلمت للجو العام لما عَدَت أصحاب المال المعدمين أخلاقا، وأصحاب الجاه الاجتماعي ورؤساء القبائل، ولكنها نظرت بعيدا، وكذلك أيضا لم تترك العادات والمألوف هي التي تقرر مصير مستقبلها، فإنا نلاحظ أن قسما من الناس يفكرون بنحو جيد، ولكن تقيدهم العادات، وتحاصرهم

التقاليد، فتسوقهم إلى اتخاذ قرارات على غير قناعاتهم، مثل أن المرأة ينبغي في موضوع الزواج أن تكون منفعلة، ومنتظرة فإن جاء رزقها كما تحب وإلا فهي لا تستطيع أن تحرك ساكنا. إلا أن هذه المرأة النموذجية بدأت تفكر في كيفية مناسبة للقرب من محمد، لا سيما وهي تسمع كلاما هنا وهناك أن رسولا سيبعث في أم القرى، وإذا قُدر ذلك في زمانها فمن سيكون أولى بهذه المنزلة من محمد؟

في الطرف الآخر كان محمد بن عبد الله ﷺ، قد بلغ من السن ما يقتضي منه الاستقلال والاعتماد على نفسه بل مساعدة عمه وكافله أبي طالب، وكان أن التقت الرغبتان فخرج محمد في أموال خديجة مضاربا بها إلى الشام.

وعاد محمد من سفرته التجارية..عاد وقد ملأ نفس ميسرة غلام خديجة إعجابا، وأترع قلبه حبا، ورأى معه من العجائب ما ينبغي أن يكون حديث المتكلمين والسُّمار.. فالملكان اللذان يظلانه عن الشمس وصفقة يمينه التي تباري السحاب في بركتها، وأمانته في المعاملة وصدقه فيها، يبطل كل ما قالوه من أن السوق تحتاج إلى أسلوب خاص يعتمد على (الشطارة) والكثير من الكذب، وخداع المشتري واستغفاله، وأن الذي يريد أن يأتي إلى التجارة بمنطق المتقين، وطريقة الأخلاقيين فلن يحصد غير الخيبة..

ها هو محمد.. صدقه في حديثه لا يفارقه، وأمانته في المعاملة لا تخلو منه لحظة، ومع ذلك فقد ربح وربح، ما لو حصل غيره عليه لطار فرحا، وهام على الثريا اختيالا.. لله دره أي سر فيه هذا الرجل؟

برقت عيناها بسرور الغبطة، وهي تسمع حديث ميسرة ورأت أنها لم تذهب بعيدا، بل وافت حسابات الحقل البيدر.. زادت له حبا، وبه تعلقا وبدأت تفكر كيف يواتيها سعد حظها في الاقتران به، وكان أن أسرت في ذلك لبعض نسائها، ثم أرسلت إلى محمد ﷺ :

(يا ابن عم اني قد رغبت فيك لقرابتك وسطتك في قومك وامانتك وحسن خلقك وصدق حديثك).. ولعمري إن هذه الكلمات بقدر ما تعرب عن كمال عقل هذه المرأة الطاهرة لتصلح أن تكون برنامجا تتبعه كل امرأة تريد الزواج والشراكة الحياتية..فهي قد فصلت ما ينبغي أن تبحث عنه امرأة عاقلة لبيبة، تهافت عليها الرجال الأثرياء وزعماء البلد ـ وقد كانت عندهم الطاهرة وأجمل نساء قريش وأثرى الجميع ـ وردهم بينما سعت هي بنفسها لكي تتزوج من رجل لا مال كثير له.

استجاب النبي ﷺ ـ وإن كان الزواج قبل البعثة ـ وتقدم مع عمه أبي طالب وصحبهم حمزة بن عبد المطلب وعدد من بني هاشم، وخطب أبو طالب لابن أخيه خديجة، متقدما بهذه الكلمات الرائعة التي تنبئ عن استشرافه لمستقبل النبي ودينه الذي سيظهر على الأديان، فمن جملة ما قال:

الحمد لرب هذا البيت الذي جعلنا من زرع إبراهيم وذرية إسماعيل وأنزلنا حرما آمنا وجعلنا الحكام على الناس وبارك لنا في بلدنا الذي نحن فيه.

ثم إن ابن أخي هذا ممن لا يوزن برجل من قريش إلا رجح به ؛ ولا يقاس به رجل إلا عظم عنه ولا عدل له في الخلق وإن كان مقلا في المال فان المال رفد جار وظل زائل وله في خديجة رغبة وقد جئناك لنخطبها إليك برضاها وأمرها والمهر على في مالي الذي سألتموه عاجله وآجله.. وله ورب هذا البيت حظ عظيم ودين شائع ورأي كامل[1].

وقام عمها لكي يخطب مجيبا بالقبول، فأخذه البهر والموقف فلم

---

(١)الكافي ٥/٣٧٥.

يستطع أن يبلغ حاجته، فقامت خديجة وقبلت لنفسها[1]، بل وضمنت المهر في مالها أيضا..

فقال بعض من حضر: يا عجبا المهر على النساء للرجال؟ فرد أبو طالب عليه: إذا كانوا مثل ابن أخي هذا طُلبت الرجال بأغلى الأثمان وأعظم المهر وإذا كان أمثالكم لم يزوجوكم إلا بالمهر الغالي.

انتقلت خديجة إلى بيت النبي صلى الله عليه وآله وسلم، وعاشت معه عشر سنوات قبل البعثة وهي ترى كل يوم عجبا من عجائبه ينبؤها عن المستقبل العظيم الذي تنتظره البشرية من بركته وعمله. وكانت صلوات الله عليها تتحرى مواضع رضاه فتواتيها، فقد قدمت على رسول الله مرضعته حليمة السعدية، فقام إليها متذكرا أيام طفولته ورضاعه من صدرها، مناديا إياها: أمي، أمي.. وألقى إليها بردائه وأقبل عليها يسألها عن حالها، وما أن ذكرت له ضيق اليد، وخشونة الدنيا، وتقدم السن بها ـ إذ يمر على ذكرى رضاعه حينئذ ما يقارب الثلاثين عاما ـ حتى انبعث رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ـ وما أكثر ما يحرك ضميَره حاجةُ الإنسان ـ فكيف إذا كان مرضعته!! قام لخديجة يحدثها عن مرضعته ولزوم مساعدتها، وخديجة التي تتطلب قضاء حاجة لزوجها فلا يكلفها بل يقضي حوائجه بنفسه، ها هي لا تسعها الفرحة ،لتقضي

---

(١)أما ما يذكره البعض من أنها قامت إلى أبيها فسقته الخمر، وتم العقد وهو ثمل ، حتى إذا أفاق قام صاخبا !! فهذا لا يقوله إلا جاهل ذلك أن أباها قد توفي قبل هذا بفترة طويلة..وهكذا الزعم بأن عمها لم يكن موافقا على الزواج وأنه كادت أن تحدث معركة لأجل ذلك فهذا أسوأ من سابقه لأن خديجة كانت ذات شخصية استثنائية وكانت (سيدة قريش) ولم يكن لأحد عليها أمر ولا نهي حتى يوافق أو يأبى !!

لمحمد حاجة يطلبها، فتأمر بما يسر محمدا ﷺ، قطيع من الغنم، ومعه ناضح (ناقة) يحمل الماء.. لمرضعة الحبيب المصطفى، وقد كان ذلك سببا في رجوعها في عام آخر بعد البعثة وإسلامها وزوجها على يد رسول الله[1].

خديجة المؤمنة

يعاني المصلحون مشكلة في تعويد زوجاتهم على نمط الحياة التي يعيشونها، ويعانون أكثر من عدم استقبالهن للتغيرات التي تحصل في تلك الحياة، والمراحل الجديدة التي يطوونها، ذلك أن هؤلاء يواجهون المجتمع المنحرف عنهم والمقاوم لتوجهاتهم، هذا خارج البيت والأسرة، ويتوقعون أنهم يجدون الدفء والدعم في داخل البيت، فإذا كانت زوجاتهم غير مستعدات لتلقي هذه التغيرات، بدعم أزواجهن والتخفيف عنهم فإن مصيبة المصلح تكون مضاعفة، فضلا عما إذا كانت الزوجة غير مؤمنة به، ولذا وجدنا تعبير القرآن عن هذا الصنف من النساء تعبيرا قاسيا، كما يلحظ في سورة التحريم ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً لِلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَتَ نُوحٍ وَامْرَأَتَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئاً وَقِيلَ ادْخُلا النَّارَ مَعَ الدَّاخِلِينَ﴾[2].إن تعبير القرآن الكريم عنهما بالخيانة مع أنها ليست الخيانة الزوجية، ليكشف عن مدى شناعة العمل في نظر القرآن الكريم، وانما كان تخليا عن عقيدتهما وعن دعم النبيين المذكورين في الآية.

في المقابل نجد بعض النساء اللاتي اختصهن الله سبحانه بمنزلة دعم الأنبياء والأوصياء، فكنّ كهفا دافئا يلجأ إليه الأنبياء في صقيع

---

(١)بحار الانوار ج ١٥/ ٤٠١.
(٢)التحريم ١٠.

الخذلان الاجتماعي، وظهرا يستندون إليه عندما ينكشف الناس عنهم.. وفي طليعة أولئك بل أولاهن على البشر كانت أم المؤمنين خديجة سلام الله عليها، فقد ضربت المثل الأعلى بفعلها للإيمان المستعلي على المصالح، المضحي بكل شيء، وللزوجة الدافعة لزوجها، الخائضة معه لجج الغمرات، وتحدي الصعوبات..

وقد بدأت أولا بالإيمان به عندما أوحي إليه من قبل الله، ومع أننا لا نتفق مع الروايات التي تنقل ومفادها أن الرسول صلى الله عليه وآله وسلم نزل عليه جبريل وغطه عدة مرات، وأنه خرج من ذلك يرجف، وجاء إلى بيت خديجة قائلا لقد خشيت على نفسي!! وأنها ذهبت به الى ورقة بن نوفل ابن عمها وكان قد تنصر وقرأ الكتب فأقنع!! ورقة بن نوفل النبي محمدا بنبوته ورسالته!! أو أنها أدخلت النبي بين درعها وجلدها فكانت إذا فعلت ذلك اختفى عنه جبريل وإذا أخرجته رأى جبرئيل.. أو أن النبي كان قد ذهب ليتردى من الجبال في عملية انتحار لم يسبقه بها نبي من السابقين، ولكن جبرئيل تبدى له حينئذ..إلى غير ذلك مما ذكروه..

نحن لا نعتقد بأي من تلك الروايات، وإنما نرى أن مجيء جبرئيل بالوحي للنبي كان أمرا متوقعا من قبله صلوات الله عليه، وأنه كان يرى ارهاصات النبوة قبل هذه الحادثة بفترة من الزمان طويلة، من سلام الكائنات عليه، والرؤيا الصادقة، بل إن نبوته كانت متوقعة من قبل آخرين من أهل بيته كجده عبد المطلب وعمه أبي طالب، فكيف يخفى عليه ما ظهر لغيره من تكريم الله إياه؟ وهو مفاد رواية صحيحة عن الامام الباقر عليه السلام: «.. وأما النبي فهو الذي يرى في منامه نحو رؤيا ابراهيم ونحو ما كان رأى رسول الله من أسباب النبوة قبل

الوحي حتى أتاه جبرئيل من عند الله بالرسالة»[١]، والرواية تتحدث عن اسباب للنبوة قبل الوحي وليس سببا واحدا.

نعتقد أن النبي ﷺ عندما بعث ـ وكان ذلك مع بداية نزول الوحي عليه ـ كان متوقعا لذلك الحادث ولم يشك فيه لحظة واحدة ولم يكن محتاجا أن يؤتى به إلى عالم نصراني لكي يقنعه بأن هذا هو الناموس الأعظم كما ذكروه، وإنما رجع إلى بيته، وقد أحس بثقل المسؤولية العظمى التي ألقيت على عاتقه، والتي سوف يواجه لأجلها هذا الكيان الجاهلي بما له من كبرياء الحمق، وجبروت الجهل والقوة..لكنه كان مصمما على القيام بهذه المهمة..

وهنا يبرز دور الطاهرة خديجة صلوات الله عليها، التي استقبلته في عودته تلك بأفضل ما يستقبل به صاحب دعوة، وآمنت به لأنها تعتقد أن هذا الرجل هو الذي تتجسد فيه كل صفات الأنبياء بل يتفوق في صفاته عليهم، فلو لم يبعث رسولا لكان الأمر غريبا.. فإنه ليصل الرحم ويصدق الحديث ويحمل الكَل ويُكسب المعدوم ويقري الضيف ويعين على نوائب الحق!

وقد كانت عليها السلام أول من آمن به، فمنذ أن جاء من غار حراء يحمل على عاتقه مسؤولية هداية البشر ودعوتهم إلى رب العالمين، هيأت له كل ما يحتاجه صاحب الدعوة، فقد آمنت به بصدق، وراحت فيما بعد تخفف عنه أذى قريش، وتكذيبهم، وتتحرى راحته، ويا بؤس نهارها لو سمعت أن رسول الله قد أوذي فهي لا تلبث أن تخرج مستنجدة بعمه أبي طالب مرة، ومدافعة عنه بصورة مباشرة أخرى، ولقد أصابها من أحجار الكفار مقدار ما أصابها من شتائمهم.. بل إن حجارة السفهاء كانت تصل إلى داخل بيتها

(١)الكافي ١/ ١٧٦.

ملاحقة رسول الله ﷺ.

المجاهدة المنفقة

منذ اليوم الأول الذي قبلت فيه الزواج من رسول الله ﷺ، جعلت خديجة نفسها وأموالها وقفا على رسول الله، فإنهم يذكرون أنها كلّفت ابن عمها ورقة بن نوفل أن يعلن على جميع القرشيين بأن ما تملك ملك رسول الله، فقام ورقة مناديا: يا معاشر العرب إن خديجة تشهدكم على أنها وهبت لمحمد نفسها ومالها وعبيدها وجميع ما تملكه يمينها إجلالا له وإعظاما لمقامه ورغبة فيه..

كان هذا الإعلان الصادق منها يعبر بشكل كامل عن طريقة الحياة التي اختارتها مع النبي محمد ﷺ، وبالفعل فقد ترجمت حياتها مواد هذا الإعلان فقد أنفقت وأنفقت حتى لقد قام الإسلام على عمودي سيف علي ومال خديجة. وكان النبي يتصرف في ذلك المال لنصر الدعوة فيعين الفقير الذي أضر به الفقر، ويعتق المملوك المسلم من يد مالكه الكافر، بل إن تجهيز المسلمين للهجرة كان من أموال خديجة، فإنه من المعلوم أن السفر ـ أياً كان ـ يحتاج إلى مئونة مالية سواء للطعام أو للراحلة، أو بعد الوصول إلى المقصد حتى تتهيأ حياة جديدة للمهاجر، وكان المسلمون المهاجرون لا سيما للحبشة غالبهم من الضعفاء والفقراء فكان مال خديجة هو الأساس المعتمد، وهجرة الفواطم وأهل النبي من مكة للمدينة كذلك، ولهذا لما سئل أبو رافع وهو يحدث عن هجرة علي عليه السلام من مكة: أو كان يجد النبي ما ينفقه هكذا؟ قال: وأين يذهب بك عن مال خديجة عليها السلام؟

وبعدها لا غرابة أن نجد أن الرسول ﷺ، وقد أسلمت له العرب أقدارها، واليهود أذعنت إليه بأموالها، وأصبحت ميزانية الدولة الإسلامية في عهده ضخمة، ومع ذلك يقول: ما نفعني مال قط

ما نفعني مال خديجة[١]!..لقد كانت صاحبة المال مباركة وكانت نيتها في العطاء خالصة، فجاءت هذه البركات.

أم الذرية النبوية الطاهرة

كان رهان الكفار أولا على النبي ﷺ، وأنه سوف يتراجع عن دعوته عندما يجد أن قريشا كلها يد ضده، أو أنهم يمكن أن يغروه بالمال وغيره..وفشل هذا الرهان منذ الأيام الأولى عندما أعلنها بصراحة لهم: لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في شمالي على أن أترك هذا الأمر ما تركته حتى يظهره الله أو أهلك دونه.

ثم كان رهانهم على إيذاء المسلمين وفتنتهم، وأنهم عندما يلقون الإيذاء والاضطهاد والمقاطعة سوف يتركون دينهم الجديد.. ولم يكن حظ هذا الرهان إلا كسابقه.. وكعادة الغريق الذي يتشبث بأي حشيش أو طحلب، راهنوا ـ وما أكثر رهانهم وقمارهم ـ هذه المرة على الزمان والأيام، فهم يرون أن محمدا هو كل شيء في هذه الدعوة، وعما قريب يهلك أو يقتل، فتموت بذلك دعوته إذ أنه لا عقب له، بل هو (أبتر) كما كان يقول العاص بن وائل..

وهنا يتجلى إكرام الله لخديجة، ومباركته إياها فإذا بها تكون أم الذرية، ووالدة الكوثر، ويمن الله سبحانه على نبيه وعلى هذه السيدة الجليلة بل على الأمة بهذه السلالة الطاهرة﴿ إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الأَبْتَرُ ﴾.

فقد رزق الرسول منها القاسم والطاهر (وهو عبد الله) وقد توفيا صغيرين، كما رزق منها سيدة نساء العالمين أجمعين فاطمة الزهراء عليها السلام وهي التي كان منها ذريته وبقي منها نسله، فكانت

---

(١)بحار الانوار ٦٣/١٩.

بحقٍّ (الكوثر والخير الكثير)، وبقي امتداد رسول الله منها ذرية طيبة يملئون الأرض نورا وهداية في كل عصر، وينفون عن الدين تأويل المبطلين.. بينما كان شانئه وشانئهم هو الأبتر، الذي يذهب الضجيج الذي يصنعه بذهابه ويموت ذكره بحلوله في التراب.

والذي ينبئ عن اختصاص السيدة الطاهرة المباركة بهذه المنقبة أن نساء النبي جميعا لم يرزق النبي منهن بشيء[1] ـ ما عدا مارية والتي توفي ابنها ابراهيم مبكرا ـ مع أن فترة بقائه مع كثير منهن كانت في حدود العشر سنوات، وكان فيهن البكر والثيب ومن أنجبت من غير النبي قبله كأم سلمة رضوان الله تعالى عليها، ولكنها منقبة اختصت بها هذه الطاهرة التي ملّكت نفسها لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم حتى قبل بعثته رغبة فيه وإجلالا لمقامه.. و ﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا﴾.

من الجنة هذه المرة تشكلت النطفة الطيبة ليأتي منها الكوثر.. فقد روي في أكثر من سند بأن الله سبحانه وتعالى لما أراد أن يظهر نور فاطمة الزهراء صلوات الله عليها أمر نبيه أن يعتزل خديجة مدة من الزمان، يكون فيها صائم النهار قائم الليل، حتى إذا تمت تلك المدة أتحفه بتفاحة من طعام الجنة هدية الرب الجليل إلى عبده ورسوله لُتبنى خلقة فاطمة على طعام الجنة الخالص من الشوائب والأدران، وبالفعل فقد واقع النبي أهله بعد ذلك مباشرة فمنها تكونت فاطمة عليها السلام ولذلك كان النبي صلى الله عليه وآله وسلم إذا أراد أن يشم رائحة الجنة قبّل الزهراء «تفاحة الفردوس والخلد التي شرف الله مولدها بنساء الجنة وسل منها أنوار الأئمة».

---

(١)ورد في حديث لرسول الله اشارة إلى أن الله قد وهبه الذرية منها بينما حرمت الباقيات عن ذلك ، لما سمع احدى نسائه تنتقد خديجة.

عام الحزن

ألف يوم تقريبا، هي الفترة التي قضاها بنو هاشم والمسلمون مع رسول الله في شعب أبي طالب ـ وهو واد بين جبلين في مكة ـ..وذلك بعد أنَ أعلنت قريش المقاطعة الاقتصادية الشاملة ضدهم، فلم يسمح لهم بالشراء من بائعي مكة، ولم يشتروا منهم شيئا، ونفذ القوت وانتهت الأطعمة حتى لقد كان أطفالهم يتصايحون من الجوع، ولكنها ضريبة الإيمان التي دفعها المسلمون برضا نفس، وسكينة قلب. غير أن الفترة تلك قد أثّرت في صحتهم وأبدانهم، وخديجة بنت خويلد التي كانت أغنى امرأة في قريش، ها هي ترقد على بساط هو والتراب واحد في ذلك الشعب وقد نحلت قوتها، وشحب لونها إلا من ابتسامة الاطمئنان المشرقة وهي تتوقع الوصول إلى حبيبها السلام الذي منه السلام وإليه يعود السلام.

يمر عليها رسول الله ﷺ، فيرى خديجة التي ما نفعه بمال كما نفعه بأموالها هاهي تعيش لحظاتها الأخيرة، وهي صفر اليدين من أموال الدنيا التي أنفقتها لشراء الآخرة ولقد ربح بيعها، لكن الأمر محزن، أن تكون في هذه اللحظات وبهذه الصورة فلا يستطيع الرسول أن يفعل لها شيئا..فقال لها: بالكره مني ما أرى منك ياخديجة وقد يجعل الله في الكره خيرا كثيرا..أما علمت أن الله قد زوجني معك في الجنة مريم بنت عمران وكلثم أخت موسى وآسية امرأة فرعون[1]؟

---

(١)بحار الأنوار ١٩/ ٢٠ .. والجدير ذكره أن هذا النص يكشف عن أسماء زوجاته صلوات الله عليه من أهل الدنيا وأما ما قيل من أن زوجاته في الدنيا هن زوجاته في الآخرة فلا يثبت. وما نقل سواء في البخاري أو في مسند احمد ليس مسندا لرسول الله بل هو لو تم سنده كلام لعمار وليس لرسول الله.

وجاءت بعد ذلك أسماء بنت عميس فوجدت خديجة تبكي، فجلست تنهنه عنها، وتذكرها أنها واردة على من هو مشتاق إليها، ومن صرفت عمرها لأجله، فأخبرتها أنها لا تبكي لفراق الدنيا وإنما تبكي لحال ابنتها فاطمة: فإنه لا بد للمرأة ليلة زفافها من امرأة تفضي إليها بسرها، وتستعين بها على حوائجها، وفاطمة حديثة عهد بصبا وأخاف أن لا يكون لها من يتولى أمرها حينئذ. فعاهدتها على أن تكون لفاطمة في ليلة زفافها كما أرادت خديجة..

واطمأنت الطاهرة إلى وضع فاطمة في أول ليلة من حياتها الزوجية، أغمضت عينيها، وصافحتها الملائكة مسلمة، وقدمت الروح على بارئها.. إلى جنته حيث لا نصب ولا تعب ولا صخب.

نسيبة بنت كعب الأنصارية

(أم عمارة)

«لمقام نسيبة يوم أحد خير من مقام فلان وفلان..»

رسول الله ﷺ

ظلمت المدنية الغربية المرأة مرتين..

ظلمتها حين اختصرت وجودها في أنها جسد جميل، يثير الغرائز، ويلهب الأحاسيس.. وكتلة لحم متناسقة، فأعطت كل شيء للرجل، وأعطت للمرأة المساحة الإعلانية التي تلفت الانتباه، فإذا أرادت أن تعلن عن جودة الشاي، لا بد من امرأة جميلة في الإعلان،وإذا أرادت تسويق السيارة فلا بد من مظهر مثير لامرأة راكبة فيها، وللتعريف بالأصباغ أيضا امرأة، وأدوات الحدادة..و..و. فاختصر كل ذلك الوجود في مساحة الجسد المثير، والذراع العاري، والصدر المكشوف.

وظلمتها مرة أخرى حين أقنعتها بأن وجودها قيمته في ذاك، فلا بد أن تهتم ـ إذن ـ بما يرتبط بالجسد، من عمليات تجميل، حتى أن إحداهن لكي تكون جميلة قد أجرت ثلاثين عملية جراحية، ومن عطور ومن أدوات ماكياج.

وانطلت الخدعة على الكثير من النساء، فإذا بهن يركضن في طريق ينتهي بهن إلى الهامشية، وإذا بهن يحولن وجودهن الإنساني، ودورهن الرباني إلى جزء من منظر جميل، تماما كما التحفيات في

المنزل والورد في الحديقة وأصبح صراع المرأة لإثبات وجودها، لا يمـر إلا عبر هذا الطريق.. فالتنافس هو بين الأجساد، والملكـة لـو أرادت أن تكون فليست إلا في الجمـال الجـسدي. وحـتى هـذه المـسكينة ـ الملكة ـ بدورها قيمتها في سنة واحدة حيث تتذوق طعم الوجـود ـ كما أرادوه لهـا ـ ثم تخلـي موقعهـا لتنتـهي بـذلك فائـدتها، وتـاريخ صلاحيتها تماما كما الأغذية فاقدة الصلاحية!!

في المقابل رفع الإسلام شأن المرأة كإنسان، عليها من المسؤولية ـ في الخطوط العامة ـ ما على الرجل، ولها من الشرف والقيمة ما لـه، فهـي محـل خطـاب الالـه، وهـي محـل ثوابـه مـع الاحـسان، ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُـوَ مُـؤْمِنٌ فَأُولَئِـكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلا يُظْلَمُونَ نَقِيراً﴾

وعلى أساس تلك النظرة قدمت النساء المـسلمات في العـصور الإسلامية المختلفة صورا عالية، للنموذج المثالي الذي يمكن أن تصل إليه المرأة حين تعي دورها، وتعرف قيمة نفسها، وشـرف وجودهـا، فإذا بالإسـلام يـصنع مثـل خديجـة الـتي قـام الـدين علـى جهـدها وتضحيتها، وإذا بفاطمة.. وغيرهن.

ومن النجوم الزاهرة التي سطعت في سماء الإسـلام نـسيبة بنـت كعب الأنصارية.

نسيبة المنتمية

بينمـا كـان الـسائد أن المـرأة متـاع، وجمـال، ولا تـدخل بـين السلاطين، ولا شأن لها بالأفكار، فيكفيها مخدع الليل ومطبخ النهار ليملأ عليها حياتها، وإنما الأفكار، والانتماءات، والمواقف مـن شـأن الرجال، ها هي نسيبة بنت كعب تنقض هـذه الفكـرة لتكـون ممـن انتمى إلى الرسالة الإسلامية، واستجاب لـدعوة الـنبي محمـد ﷺ،

فهاهو النبي في مكة يدعو القادمين إلى مكة لدينه، ويخبرهم عن أهدافه. ويستجيب له نفر من الأنصار، في بيعة العقبة الأولى.

وفي موسم الحج الثاني يأتي عدد ممن أسلم في يثرب، وممن أراد الإسلام على يد الرسول، ووعدهم باللقاء ليلا بعد أيام التشريق، وأمرهم أن لا ينبهوا تلك الليلة نائما ولا ينتظروا غائبا، وجاؤوا في تلك الليلة وهم سبعون رجلا وامرأتان، وجاء رسول الله ﷺ ومعه حمزة والعباس وعلي.فبايعوه «على السمع والطاعة في العسر واليسر والمنشط والمكره، وأن لا ننازع الأمر أهله، وأن نقوم بالحق حيث كنا لا نخاف في الله لومة لائم».

وكانت الرجال تصفق على يدي رسول الله، قالت أم عمارة: فلما بقيت أنا وأم سبيع نادى زوجي غزية بن عمرو: يا رسول الله هاتان امرأتان حضرتا معنا يبايعنك!

فقال: قد بايعتهما على ما بايعتكم عليه إني لا أصافح النساء.

وقد وفت عمليا بما بايعت عليه الله ورسوله﴿وَمَنْ أَوْفَى بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهُ اللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْراً عَظِيماً﴾.

نسيبة المجاهدة في ساحات الحرب

هاجر الرسول ﷺ إلى المدينة، وبدأ ببناء ذلك الصرح الإسلامي الشاهق، الذي قدر له أن يبقى علامة على التغيير الاجتماعي الشامل، ونموذجا لما تحدثه رسالة الإسلام في نفوس المنتمين إليه حقيقة، وكان من المسلمين فئة تفاعلوا بشكل تام مع تعاليم الإسلام، وانصهروا في بوتقة أفكاره، وطبقوا مفاهيمه، وكانوا على انسجام تام في علاقاتهم، ويظهر أن نسيبة كانت من أوائل الذين التفتوا إلى وجود الخط الرسالي الأكثر وعيا وتضحية بين المسلمين، وهو خط الموالين لعلي عليه السلام والمنسجمين معه، خصوصا وأنها

كانت قد بايعت في مكة على أن لا تنازع الأمر أهله، مما أنبأها أن هناك أهلا معينين للأمر، وليست القضية مقهى مفتوحا لكل أحد، وتتبعت أولئك الأهل فإذا هم (أهل البيت) وعرفت من تصريحات الرسول، وإشاراته لزوم متابعتهم والانسجام معهم، وهكذا كانت تجد في أمير المؤمنين ذلك القائد الرباني الذي يخلف النبي صلى الله عليه وآله وسلم.

ولمعرفة علي بن أبي طالب عليه السلام، بولاء تلك المرأة فقد كان يقيل عندها في منزلها كما يذكر السيد الأمين في الأعيان، ولعل ذلك كان قبل زواجه بالزهراء عليها السلام في السنة الثانية للهجرة أو بعدها.

وكما كان النبي صلى الله عليه وآله وسلم، مع أصحابه يعملون بجد في إنارة طريق البشر، فقد كانت قريش تحاول إطفاء ذلك النور، فكانت بدر، حيث أراد المشركون أن يأخذوا المسلمين (كأكلة رأس)، فيشربون وينحرون ثم لا تزال العرب هائبة لقريش ما بقي الدهر كما زعموا..و﴿وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَنْ يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾. فانهزم الجمع وولوا الدبر، مخلفين من القتلى سبعين ومن الأسرى مثلهم، ومن الخزي أضعاف ذلك.

وأخذت قريشا العزةُ بالإثم، ولم تتعظ بما سلف منها في مقاومة خط الهداية والحق، فأعدت العدة يحدوها حقدها، ويسوقها بغيها، إلى حد أنهم لم يسمحوا للعوائل أن تبكي قتلاها لكيلا تنفس جمرة الغضب، وسورة الانتقام.. خرجوا بعد سنة من واقعة بدر في ثلاثة آلاف، معهم مائتا فرس ومعهم النساء (ومرة أخرى تعود الجاهلية لاستخدام المرأة كجسد، وإثارة، هذه هند قد خرجت ومعها نساؤها يضربن بالدفوف خلف الرجال ويحرضن على القتال:

إن تقبلوا نعانق ونفرش النمارق
أو تدبروا نفارق فراق غير وامق

مرة أخرى لا شيء غير العناق، وغير النمارق، وغير الجسد!! هل ترى فرقا بين الجاهليتين؟

﴿ولَقَدْ صَدَقَكُمُ اللّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِ ..﴾ فكانت الدائرة على الكفار، ولواء المسلمين بيد علي عليه السلام، إذ ما صافحته غير كف علي ما دام في معركة موجودا، فمن يحمل راية النبي يوم القيامة ولواء الحمد هو الذي يحمل رايته في الدنيا. وخرج طلحة بن أبي طلحة (من بني عبد الدار) وهو حامل لواء المشركين، وطلب البراز، فخرج إليه علي عليه السلام، فسأله طلحة من يكون فأخبره، فقال طلحة: قد علمت يا قُضَم أنه لا يجسر عليّ أحد غيرك.. وابتدره علي بضربة على رأسه ففلق هامته حتى وصل السيف إلى موضع لحيته، ثم حمل اللواء أخوه عثمان بن أبي طلحة فقتله علي، ثم أخوهما أبو سعيد، ثم مسافع..وهكذا كأن لواء المشركين كان فال سوء على من حمله، فلا يلامس يد أحد إلا جدله علي عليه السلام، حتى بلغ عدد من قتل بعد حمل اللواء أحد عشر رجلا!! وكانت كتائب المشركين قد انتقضت أطرافها بعد الالتحام مع المسلمين، وانهزموا لا يلوون على أحد. ولاحت في الأفق تباشير النصر الكامل.

وهنا استثار الشيطان في بعض النفوس الإثرة، وأهاب بهم شح أنفسهم أن يذهبوا لجمع الغنائم ﴿حَتَّى إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَعَصَيْتُمْ مِنْ بَعْدِ مَا أَرَاكُمْ مَا تُحِبُّونَ مِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الْآخِرَةَ﴾[1]

وتحول النصر إلى تراجع، واستفاد خالد بن الوليد من الفرصة وقلب الكرّة على المسلمين، فإذا بالأكثر يهربون تاركين الرسول صلى الله عليه وآله وسلم صامدا في جمع من المخلصين.. فر الصحابة والقوالون، وذوو

(١)آل عمران: ١٥٢.

الألسن الطليقة في السلم، هؤلاء ظلوا يصعدون ولا يلوون على أحد والرسول يدعوهم في أخراهم، وبقي معه من امتحن الله قلبه للإيمان.

فكان علي عليه السلام إلى جانب رسول الله الذي ظل ثابتا، ولم يتراجع كما يشيعه بعض المؤرخين الذين أرادوا تخفيف معصية بعض الصحابة المعروفين الذين انهزموا عن الرسول حتى لقد استمر أحدهم في هزيمته ثلاثة أيام، فلكي يخففوا المسألة عن الصحابة نسبوها للرسول صلى الله عليه وآله وسلم، وحاشاه.

بقي علي مع الرسول مدافعا وهو صلى الله عليه وآله وسلم ينادي: يا علي اكفني هذه، فيحمل عليهم ويفرقهم حتى قصدته كتيبة من بني كنان، فقالص): اكفني هذه الكتيبة، فيحمل عليها وإنها لتقارب خمسين فارسا وهو عليه السلام راجل فما زال يضربها بالسيف حتى تتفرق عنه، ثم تجتمع عليه هكذا مرارا حتى قال جبريل: يا محمد إن هذه المواساة، لقد عجبت الملائكة من مواساة هذا الفتى!

فقال صلى الله عليه وآله وسلم : وما يمنعه، وهو مني وأنا منه؟

فقال جبريل: وأنا منكما.

ثم سمع مناد من السماء: لا سيف إلا ذو الفقار ولا فتى إلا علي

فسئل عنه رسول الله فقال: هذا جبريل![1]

وهنا كان دور أم عمارة، نسيبة المجاهدة التي كانت قد خرجت لمعونة المسلمين فيما يرتبط بتموينهم بالماء، بينما هرب ذوو الأسماء اللامعة من الرجال، الذين تُسطر لهم المناقب، وتؤلف لهم الفضائل، برز دور هذه المرأة المجاهدة في الدفاع عن النبي والذب عنه، ذلك أنه

---

(١)الصحيح من سيرة النبي الأعظم ١٦٠/٦.

مع تهديد المشركين لحياة النبي ﷺ يكون واجب المسلمين رجالا ونساء وشيوخا و أطفالا الدفاع عن تلك الذات المقدسة. فلنستمع إليها تتحدث قائلة:

خرجت أول النهار ومعي سقاء فيه ماء فانتهيت إلى رسول الله وهو في أصحابه والريح والدولة للمسلمين فلما انهزم المسلمون انحزت إلى رسول الله فجعلت أباشر القتال وأذب عن رسول الله بالسيف وأرمي بالقوس حتى خلصت إليّ الجراحة.. قالت فيما ترويه عنها أم سعيد بنت سعد بن الربيع: فرأيت على عاتقها جرحا له غور أجوف[١]

وكانت قد اعترضت بن قميئة عندما جاء بزعمه ليقتل النبي، فجرحها في عاتقها جرحا بليغا، وأراد ولدها عمارة الفرار فقالت: يا بني إلى أين تفر عن الله وعن رسوله، فردته فحمل عليه رجل فقتله، فأخذت سيف ابنها وحملت على الرجل ضاربة إياه على فخذه، فأردته صريعا، والرسول يقول: بارك الله عليك يا نسيبة..وكانت تقي الرسول بيديها وصدرها حتى خلص إليها جراحات كثيرة.

كما أنها شهدت الحديبية وخيبر والفتح وحنينا.

رحمها الله وحشرها مع نبيها وأوليائها

---

(١)الاصابة في تمييز الصحابة٨.

سمية بنت خياط

أول شهيدة في الإسلام

استشهدت سنة ٧ قبل الهجرة النبوية الشريفة

تقدر الأمم أوائلها، وتنظر إليهم بعين التقدير والإكبار، فتخلد ذكرهم، وتعلي شأنهم، وتبقي تأريخهم أمام الأجيال التي تأتي بعدهم، ولا يختص هذا بالأمة الإسلامية بل هو جار في سائر الأمم.. فما هي ميزة الأوائل ؟

الأول هو ذلك الذي يبدأ قبل حركة الجميع سواء في ميدان العلم أو العمل، فيحول سكون الأمة إلى حركة، وسكوتها إلى كلمة، وخذلانها إلى نصرة، ثم تبدأ مسيرة الجمهور، وتألف الطريق الذي بدأه ذلك الأول، ولهذا كانت حركة الأوائل ميلادا لحركة المجتمع.

وتأتي هذه الحركة أو ذاك الموقف في وقته المناسب، حيث يحتاج الهدى إلى ناصر، ولذا كانت قيمة الموقف تزداد بحسب ما يحيط به من ظروف فإنه ﴿لا يَسْتَوِي مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ أُوْلَئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ الَّذِينَ أَنفَقُوا مِن بَعْدُ وَقَاتَلُوا ...﴾[1].. وإلى هذا يشير النبي الكريم ﷺ، حين تحدث عن أم المؤمنين خديجة سلام الله عليها، مبينا أهمية موقفها «آمنت بي حين كفر بي الناس وصدقتني حين كذبني الناس» ويلحظ التركيز على (حين) ذلك العمل، فما

---

(١)الحديد ١٠.

أكثر الأنصار للنبي فيما بعد، وأكثر المؤمنين به والمصدقين برسالته، ولكن (حين) صدقت خديجة لم يكن هؤلاء الناس .

الأول في الكلمة الطيبة هو الذي يعتلي صهوة التقدير، لأنه بذلك يغرس الشجرة الطيبة، فتبدأ هذه بالإنتاج وتثمر كلمات طيبة، وأخلاقا عالية، و مجتمعات ناهضة، و الكلمة المناسبة في الموقع الحرج تصنع الانتصار، وخلافها تصنع خلافه، ولهذا رأينا مقالة المقداد وكيف استقبلها رسول الله، فإنه لما بلغ رسول الله ﷺ مسير قريش لحربه، في بدر، قام وطلب من الناس الرأي، فقام أحد أصحابه فقال: يا رسول الله إنها قريش وخيلاؤها ما ذلت منذ عزّت!! فكره رسول الله مقالته لما فيها من تثبيط للهمم والعزائم، وقام آخر وقال كما قال سابقه، ثم قام المقداد بن الأسود رضوان الله عليه فقال: يا رسول الله امض لما أراك الله فنحن معك، والله لا نقول لك كما قالت بنو إسرائيل لموسى: اذهب أنت وربك فقاتلا إنا ها هنا قاعدون، ولكن اذهب أنت وربك فقاتلا أننا معكما مقاتلون، فو الذي بعثك بالحق لو سرت بنا إلى برك الغماد لجالدنا معك من دونه حتى تبلغه.. فقال له رسول الله خيرا ودعا له.. وقام سعد بن معاذ وقال مثل مقالته، فسر رسول الله بذلك، وقال: لكأني أنظر إلى مصارع القوم..

إن أهمية الأوائل أنهم لا ينتظرون.. بينما غيرهم قد يفكرون نفس التفكير لكن الإقدام على خلاف المألوف، يحتاج إلى عزيمة بأس، وقوة قلب، وشجاعة مبادرة وهي لا تتوفر لدى كل أحد.. والأوائل رضوا لأنفسهم أن يكونوا مبادرين. وغيرهم ينتظرون أن يتقدم أحد فيتبعونه.

والأولية لا تأتي عفوا وبلا مقدمات، وإنما لكون صاحب هذا الموقف، يملك شخصية من هذا النوع، فلن ترى جبانا بطبعه يكون

أول من يبرز للقتال في مورد، ولا من هو بخيل بطبعه يكون أول من أعطى، وهكذا. ولهذا وجدنا صفات الأوائل لا تحتاج في بعض الشخصيات إلى كثير عناء لإثباتها لأنها تجري على مقتضى القاعدة، فإذا قيل أن عليا عليه السلام أول من آمن، وأول من استجاب، وأول من يخرج لنداء الرسول صلى الله عليه وآله وسلم في الحروب، وأول من يتصدق.. بينما يحتاج الآخرون في إثبات هذه الخصلة وتلك إلى كثير من الجهد، لأن هذه الصفات لا تأتي إلا مع كثير من الاصطناع. ولا تنسجم مع التركيبة العامة للشخصية.

❁❁❁

وأمامنا امرأة من الأوائل..فهي أول شهيدة من النساء المسلمات، دفعت حياتها ثمنا لعقيدتها، في وقت كانت العقائد تستام فيه بالثمن البخس، والدراهم المعدودة.. كان من الممكن أن تكون من الكم المهمل المنسي من الجواري والخادمات، اللاتي ينهين أعمارهن بين إعطاء اللذة والمتعة حينا وبين المكنسة والممسحة حين يتجاوز بهن الزمن ذلك، لا يعرفن ما يدور حولهن، ولا يردن أن يتعرفن على ذلك..

لكن سمية بنت خياط رفضت هذا المصير، ورأت بعد أن اهتدى عقلها إلى الله، وقلبها إلى الالتزام بلوازم تلك العقيدة، أن الأمر يستحق التضحية..

افتتحت سمية يومها في بيت أبي حذيفة بن المغيرة المخزومي بما تعمله هي ومثيلاتها في بيت مخدوميها، وقد كانت مولاة لهم، إلى أن كان يوم ساق إليها حسنُ توفيقها ياسرا، وهو بدوره حليف لأبي حذيفة، وزوجها إياه أبو حذيفة، ولم يكن لها خيار مع أمر سيدها، وإن كان هذا الزواج في علم الله سيكون بداية السعادة الحقيقية لها، حيث رزقت بزوج ستمر عليه الأيام فيما بعد فإذا هو يعينها على

الصمود على الحق الذي آمنا به، ويكون نتيجة ذلك الزواج (عمارا) ذلك الذي قدر له أن يمتلئ إيمانا من رأسه إلى قدميه.

وضجت محافل مكة بأخبار الدعوة الجديدة والداعي الجديد، بين غاضب منه ومشفق عليه، ومتحدث عن قلة حكمته لو كان يريد مواجهة مجتمع قريش بكامله، بل يريد مواجهة الآلهة التعرض لغضبها، وتحديها ولا يفعل ذلك أقوى الفرسان والشجعان، فكيف بيتيم أبي طالب؟ ماذا لو سلبه (هبل) البركة؟ أو غضبت عليه (اللات)؟

ثم لماذا يفعل ذلك؟ أيريد من إثارة تلك المشاكل أن يحصل على الأموال.؟ فهو يساوم على أن يشتروا منه الهدوء والسكوت بأموال ـ خاصة وهو الفقير الذي لا يملك الأموال كما يملكون.ـ؟ أو أنه يريد أن يصنع له شخصية يقارع بها سادة قريش التقليديين، ويريد أن يتسود ويحصل على الملك والرئاسة؟ وهل أن هذا هو حلقة من حلقات الصراع بين بني هاشم وبني أمية لزعامة قريش؟

وكان الموالي والعبيد يسترقون السمع لما يدور في مجالس القرشيين تارة، فيجدون فيهم خوفا لا على آلهتهم ولا ديانتهم، وإن كانوا يظهرون ذلك، ولكن على تجارتهم ورئاستهم وموقعهم الاجتماعي، وهو الأهم، يخافون على أموالهم ... ولتذهب الالهة إلى الجحيم.. إنما يعبدونها لأنها تعبد الطريق أمام ثروتهم وسلطتهم، ويخدمونها لأنها تخدمهم، و يقدسونها لأنها تصنع لهم قدسية عند الآخرين..يستمع هؤلاء الموالي والخدم والعبيد فلا يجدون صدقا عند سادتهم حتى في عبادتهم. وتتسرب إليهم من بعيد كلمات متفرقة، و أشياء مبتسرة عن الدعوة الجديدة، فيجدون في متفرق الكلمات ذاك، اجتماع الشمل الإنساني، وفي مبتسر الأفكار خريطة واضحة عن المسير و المصير.. ها هو يبين لهم ما في أعماق فطرتهم من أنه

﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلا اللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ و﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾، و أن هذه الحياة ليست نهاية المطاف، بل يبعث الناس إلى يوم الحشر والتناصف و التغابن، وأما الأموات فإنه ﴿يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾.

وسعيد الحظ من هؤلاء من كان يستطيع أن يتصل اتصالا أوثق بصاحب الدعوة سواء بنحو مباشر أو غير مباشر لكي يؤمن على يديه..

وكانت سمية وياسر من أولئك السعداء، فقد أسلم عمار ابنهما وكان يستطيع الاتصال بالنبي ﷺ، وتفهم الدعوة المحمدية، وجاء فرحا بذلك الكنز الذي يعادل وجوده، لكي يلقي على والديه ما سمع، فيجد منهما أذنا صاغية، وقلبا مخبتا واعيا، وفطرة سليمة لم تكدرها سنوات العيش مع كفار قريش. وكان أن أسلمت الأسرة بكاملها.

كمن يلدغ برقطاء سامة، انتفض آل أبي المغيرة المخزوميين عند سماعهم نبأ إسلام الأسرة، وكان عليهم أن يظهروا أمام باقي قريش إخلاصهم لأوثانهم، وعزمهم على مقاومة الدعوة بالقسوة على مواليهم.. ربما لم يكن مهما عندهم كثيرا أن تتغير عقائد هؤلاء، ما داموا يتمكنون من استخدامهم واستعبادهم، لكن المشكلة أن هذا الدين الجديد، ينفخ في معتنقيه فطرة الحرية، وعدم الخضوع إلا لله الواحد.. وهذا ما كان يؤذيهم. المشكلة أن كفار قريش بدأ بعضهم يلوم بعضا، ويتهم بعضهم بعضا بالتستر على أبنائه، وأقاربه ممن آمن بمحمد، فيقدم صلة القرابة على آلهته، ويفضل حميمه على اللات وهبل والعزى.. وهذا أيضا مما كان يدل على عدم صدق أولئك فهم تجار حتى في العبادة، ويتحركون ضمن دائرة المصلحة حتى فيما يرتبط بأمور الدين..

ولكي يبرهن هؤلاء على حماسهم الشديد لآلهتهم، وأنهم لا يتنازلون عنها فقد صبوا جام غضبهم، بل كل حقدهم على أولئك الضعفاء من الموالي والعبيد الذي ساقهم قدر ماضيهم لأن يكونوا في بيوت الكفار.

ووضع ياسر على رمضاء الأبطح وكان ربما البس أدرع الحديد في أيام القيظ اللاهب ويترك ينصهر في الشمس، وربطت سمية للعذاب والتنكيل، ودارت أيام العذاب وئيدة، بطيئة، يومها شهر وشهرها دهر، والأبدان تذوى، والمهجة تتفانى، وشمعة العمر تطفئها رياح القسوة.. ويمر النبي الكريم ﷺ، ويرى القوم هكذا، فيقول: صبرا آل ياسر موعدكم الجنة..

وكان ذلك من معجزات نبوته صلوات الله عليه، أن يخبر عن أن هذه الأسرة تزف إلى الجنة، مع أنه يحتمل أن يتراجع أحدهم أو ينصرف عن دينه.. بل حتى عندما طال العمر بعمار الابن، وعاصر مختلف الأحداث إلى أكثر من أربعين عاما بعد مقالة النبي ﷺ تلك، فإنه كان في مواقفه على موعد مع الجنة دائما فلا يختار إلى ما يؤدي به إليها..

واستمر العذاب، واستمر الصمود، وكأن سمية ومعها ياسر هم الذين يعذبون سادتهم، وينغصون عليهم حياتهم ؛ كانوا وهم في أدرع الحديد في الشمس في قيظ مكة محرومين من الماء والراحة، بينما كانوا في أتم سلام نفسي، وهدوء داخلي وهم ينتظرون ـ عن قريب ـ تحقق موعد رسول الله، وفي المقابل كان آل أبي المغيرة وأبو جهل، وسواهم، ينتظرون صرخة استسلام أو تراجع من الشيخين الكبيرين الطاعنين في السن، فلم يحظوا بذلك، وكان هذا يمرغ أنوفهم في التراب، لكأنهم تفقأ في أعينهم حبات الحصرم غيظا، ويهز وجودهم هذا الصمود، فيزيدهم غيظا على غيظا، ويرفع الضغط في دمائهم

إلى آخر مستوياته.

وصبرت سمية وزوجها، ولم يصبر معذبوهم، وانتصر في هذا السباق المعذَّبون على المعذِّبين، ولم يستطع هؤلاء مواصلة المشوار.. وقام أبو جهل ـ لما ركبه من الغيظ ـ وبيده حربة وهو يزبد ويرعد، وأقبل نحو سمية، وأمرها أن تكفر بمحمد، وابتسمت هازئة منه.. لقد انتهى زمن الأوامر يا أبا جهل.. إن سمعا يصيخ لنداء الله لا يستطيع أن يلتقط ذبذبات الكفر!

وأعاد الكرة مرة أخرى، مهددا بالقتل مع أن قتل النساء يعتبر عارا عند العرب في المعارك، فكيف إذا كانت المرأة مربوطة ومقيدة؟ لكنه لا يريد أن يعلن هزيمته أمام الملأ، عن إقناع امرأة مملوكة في أن تقول شيئا، ولو كلمة واحدة، ولو كان يتمكن من التضرع إليها، أن لا تهزم كبرياءه أمام الناس لفعل.. كلمة واحدة، تنقذه ولو من طرف اللسان، ثم لتعد إلى ما كانت عليه..كيف لا يستطيع سيد قريش أن يجبر امرأة من الموالي على قول كلمة، وهي ـ وأمثالها ـ سابقا كن يتسابقن إلى رضاه؟ ماذا يقول عنه الناس؟ وبأي وجه يلقاهم؟

وقر قراره على أن لا ينهزم مهما كلف الثمن، وبالفعل كان الثمن غاليا، عليه أيضا فإنه بقتلها أعلن أنه عاجز عن إقناع امرأة مملوكة أولا، وإجبارها ثانيا على قول ما يريد ولا تريد، ورخيصا عليها فقد مهد لها تلك الشهادة الدامية الخالدة التي ستوصلها إلى الخلود الأبدي في الجنة.

ورفع الحربة ـ يا للعار ـ، سيد قريش، البطل المقاتل يبرز لقتل امرأة مربوطة في القيود على التراب، وانغمست الحربة في قلبها، وفاضت روحها الطيبة مفارقة جسمها إلى عالم الخالدين، مصافحة آسية داعية ﴿رَبِّ ابْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتاً فِي الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِنْ فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾.

❁❁❁

موعدكم الجنة..

بصيرة واضحة ورؤية صادقة من صادق مصدق، تظل إحدى علامات صدق النبي، إلى أن يتوفى وعمار في ركابه قد «حشي إيمانا ما بين أخمص قدميه إلى شحمة أذنيه إيمانا» وذلك لأنه «جلدة ما بين عيني وأنفي» كما قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم[(١)]. لقد أصبح عمار، كما كان سيده علي عليه السلام ، ميزان حق وهداية، فإذا كان موعده الجنة فلا شك أن مواقفه ستكون مستقيمة حتى يصل إلى الجنة. ولهذا كان نعم النصير لأمير المؤمنين.. فإذا ذُكر خيرة الأصحاب ذكر عمار بن ياسر، بينما لم تكن علاقاته مع الخلافة السابقة لعهد أمير المؤمنين كما ينبغي، فقد ولاه الخليفة عمر بن الخطاب، ثم عزله فقال له: أساءك عزلنا إياك؟ قال: لئن قلت ذاك لقد ساءني استعمالك إياي!![(٢)]. ولم تكن علاقته مع الخليفة الثالث ودية كما ينبغي فقد أنشد عمار ما سمعه من علي عليه السلام حين بناء المسجد:

لا يستوي من يعمرالمساجدا	يدأب فيها راكعا وساجدا
وقائما طورا وطورا قاعدا	ومن يرى عن التراب حائدا

فسمعه عثمان فقال: يا ابن سمية! ما أعرفني بمن تعرض، وكان معه جريدة فقال: لتكفن أو لأعترضن بها وجهك.. فلما بلغ النبي صلى الله عليه وآله وسلم ذلك قال: عمار جلدة ما بين عيني وأنفي، فمن بلغ منه ذلك فقد بلغ مني[(٣)]

---

(١)قاموس الرجال للتستري ٨

(٢)المصدر السابق.

(٣)المصدر.

وعادت إلى قرارها بعد محارها، وقرت عين عمار فهذه صورة رسول الله في شخصية علي أمير المؤمنين، وهذه أحكام الدين بيد الأمين الذي يقول «فاسألوني قبل أن تفقدوني فو الذي نفسي بيده لا تسألوني عن شيء فيما بينكم وبين الساعة، ولا عن فئة تهدي مئة وتضل مئة إلا أنبأتكم بناعقها وقائدها وسائقها ومناخ ركابها، ومحط رحالها ومن يقتل من أهلها قتلا ومن يموت منهم موتا..»[١].

ولم يكن شياطين الهوى، وعبيد الشهوات ليتركوا هذه التجربة الرائدة في الإدارة الإسلامية، تسير في طريق آمن فوضعوا العراقيل، وحاكوا المؤامرات و «نكثت طائفة ومرقت أخرى وقسط آخرون، كأنهم لم يسمعوا الله سبحانه يقول: ﴿تِلْكَ الدَّارُ الآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لا يُرِيدُونَ عُلُوّاً فِي الأَرْضِ وَلا فَسَاداً وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ .. بلى والله لقد سمعوها ووعوها، ولكنهم حليت الدنيا في أعينهم وراقهم زبرجها..»[٢].

وبقدر ما كان عمار متفانيا في الدفاع عن الرسول والرسالة في بداية الأمر، فقد دافع بنفس القدر والحماس عن أمير المؤمنين عليه السلام وعن حكومته ودولته، محققا بذلك قول رسول الله لعلي أنه يقاتل على التأويل كما قاتل هو صلى الله عليه وآله وسلم على التنزيل، فقد حمل عمار على أهل الشام يوم صفين، وهو يرتجز:

نحن ضربناكم على تنزيله ... فاليوم نضربكم على تأويله
ضربا يزيل الهام عن مقيله ... ويذهل الخليل عن خليله
أو يرجع الحق إلى سبيله ... يارب إني مؤمن بقيله

---

(١) نهج البلاغة.
(٢) المصدر السابق.

«وأيم الله لو ضربونا حتى يبلغوا بنا سعفات هجر لعلمت أنا على الحق وأنهم على الباطل ،،اللهم إن تنصرنا فطالما نصرت، وإن تجعل لهم الأمر فادخر لهم بما أحدثوا في عبادك»

وشرب عمار آخر شربة هي نصيبه من الدنيا، لكي تقتله الفئة الباقية، علامة صدق على كلام رسول الله ﷺ ..

الشهادة الدامية لسمية وزوجها ياسر كان لا بد أن تنتج شهيدا حيا، يحمل على راحة كفه روحه، ويقايض بها مبدأه، ويبيع لله ـ وقت البيع ـ نفسه بأن له الجنة، حتى إذا أزفت ساعة اللقاء بين الوالد والولد، قدم عمار مسربلا بدمائه، فإنه مخاصم طواغيت الأرض القاسطين.

الذلفاء بنت زياد بن لبيد

«انا خير منه» كان هو الفخ الذي وقع فيه ابليس، والبئر التي ترنح فيها، عند استكباره وإبائه السجود لآدم والعجيب أنه نفسه صار سلاحه فيما بعد لتضليل بنيه..

التوجه إلى الذات والفخر على الغير، وأخيرا الاستكبار سلسلة تتابع حلقاها، واحدة بعد الأخرى.

إن من ينظر إلى نفسه باعتباره واحدا من خلق الله له ما لهم وعليه ما عليهم، سوف لن يجد لنفسه حقا عند غيره، وبالتالي لن يسهل أمام نفسه طريق ظلم الآخرين، بينما من يرى أنه هو الأولى وهو الأفضل، سوف يجد لنفسه حقا أن يسلب غيره حقوقهم، وسوف يبرر لنفسه ظلم الآخرين.

ومهمة الديانات السماوية، أن تخرج الناس من دائرة ذواهم إلى رحاب الله الواسعة، ومن فخرهم بما لا يملكون إلى فخرهم (لو شاؤوا الفخر) بما يكسبون من تكامل أخلاقي وروحي.

ولهذا وجدنا المعصومين عليهم السلام يؤكدون باستمرار على خطورة الفخر بما يحمل من استدراج لدركات أخرى، فهو (آفة الدين) و (من عمل الجاهلية)، فهم من جهة ينسفون الأساس النفسي الذي يصنع الفخر فـ «ما لابن آدم والفخر أوله نطفة وآخره جيفة لا يرزق نفسه ولا يدفع حتفه» ومن جهة أخرى يمهدون لقيام منظومة جديدة من قيم التفاضل الاجتماعي، يصبح فيها الكمال الأخلاقي بدل الجمال الجسدي، والصفات المكتسبة بالجهد والعمل الذاتي،

بدل الصفات التي وجد فيها الإنسان مجبورا ولا دخل له في اختيارها كالعنصر والقبيلة، والشكل الخارجي..الخ. ولهذا يصبح سلمان «منا أهل البيت» مع أنه ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ﴾ ويصبح فيها «عمار جلدة مابين عيني وأنفي».. وضمن هذا الإطار يصبح «المؤمن كفؤ المؤمنة».

المشكلة أن بعض المسلمين لم يدركوا أو لم يقبلوا - مع إدراكهم - هذا المعنى في حياتهم اليومية، وبقوا يعيشون في إطار الجاهلية الأولى التي ترى أن قيمة المرء هو ما يملكه، و«إذا كان عندك فلس فأنت تساويه».

بل المشكلة تزداد عندما يبدأ الإنسان فخره بغيره، وبشيء لا يملكه، وهكذا يبدأ التكاثر والتفاخر بما يملك - بملكية اعتبارية - فإذا أعوزه الأمر يتفاخر ويتكاثر بما لا يملك، بمن هم في القبور رميم، بالعظام البالية، وبأن آباءه كانوا كذا، وأجداده كانوا كذا و ﴿حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ﴾.

وقد تضحك - عزيزي القارئ - عندما تتصور إنسانا يتفاخر بأنه يعرف المسؤول الفلاني، وأن ابن عمه يقابله الوزير الكذائي..

وقد ابتليت النساء في كثير من المجتمعات بهذا المرض، فهي تتفاخر بلبسها «واللباس ليس سوى قنية» وبجمالها «ولا دخل لها في هذا الجمال، وإنما هو اجتماع لحلقات وراثية تمتد عبر الزمان إلى الأجداد حتى تنتج هذا الهيكل» والجمال مع ذلك ظل زائل يمر عليه الزمان فيخلقه وينهيه. وبمالها «والمال غاد ورائح».. فإذا انتهى مجال الفخر الظاهري راحت تستلف وتستدين افتخارات من هنا وهناك، فهي ابنة عم فلان الثري، وهي من العائلة الكذائية ذات الأمجاد، وزوجها ذلك الشخص المشهور..الخ، وأنت ترى أن هذه الافتخارات كلها لا تمتلكها حتى بالملكية الاعتبارية الظاهرية..

والغرض من ذلك كله هو الذات ثم الذات، تأكيد الـ (أنا).. «أنا خير منه». ونفس المطب الذي وقع فيه ابليس وأوقع فيه غيره، وهو الفخر بما لا يملك، فـ ﴿خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ﴾ لو كان فيها فخر فهو فخر الخالق والصانع لا المخلوق الذي لم يكن إلا منفعلا في هذه العملية، ولم يكن ليقدم أو يؤخر شيئا.

نعم وجد من يعرف الفرق بين من تثقف بهذا النمط الجديد، وبين من لا يزال يعيش في أخلاقية الزمن القديم، الذلفاء بحسب الاعتبارات السابقة «جميلة وابنة سيد قومها..» وهذه كفاءات وميزات تفاضل اجتماعي، لم تخلقها الذلفاء ولم تساهم فيها. ولا تملك أن تخرج منها أيضا. وفي الطرف الآخر أيضا جويبر من السود، وقصير، ودميم، وهذه كلها لم يكن له أن يرفضها ولا يستطيع تغييرها، بل لماذا يغيرها؟ سوف يختار فيما بعد الشهادة فيسمو على كل هذه الأمور. كلاهما تعالى على هذه الاعتبارات، ولكن البطل الأول في هذا الفيلم كان الذلفاء، التي ركلت منظومة من العادات الباطلة التي نسف الإسلام بناءها، وطبقتها في حياتها.

هاهو جويبر يتحول إلى نموذج في الشكر للنعمة الإلهية وتلك الذلفاء تصبح مثالا يغذي التشريع الإسلامي إلى سنوات متأخرة كما يلحظ من استشهاد الإمام الباقر عليه السلام بقضيتها فعن محمد بن يحيى، عن أحمد بن محمد بن عيسى، عن الحسن بن محبوب، عن مالك بن عطية، عن أبي حمزة الثمالي قال: كنت عند أبي جعفر عليه السلام إذ استأذن عليه رجل فأذن له فدخل عليه فسلم فرحب به أبو جعفر عليه السلام وأدناه وساءله فقال الرجل: جعلت فداك إني خطبت إلى مولاك فلان بن أبي رافع ابنته فلانة فردني ورغب عني وازدراني لدمامتي وحاجتي وغربتي وقد دخلني من ذلك غضاضة هجمة غض لها قلبي تمنيت عندها الموت.

فقال أبو جعفر عليه السلام: اذهب فأنت رسولي إليه وقل لـه: يقـول لك محمد بن علي بن الحسين ابن علـي بـن أبي طالـب عليه السلام: زوج منجح بن رباح مولاي ابنتك فلانة ولا ترده، قال أبو حمزة: فرحب به فوثب الرجل فرحا مسرعا برسالة أبي جعفر.

فلما أن توارى الرجل قال أبو جعفر عليه السلام: إن رجلا كـان مـن أهل اليمامة يقال له: جويبر أتى رسـول الله ﷺ منتجعـا للإسـلام فأسلم وحسن إسلامه وكان رجلا قصيرا دميما محتاجا عاريـا وكـان من قباح السودان فضمه رسول الله لحال غربته وعـراه وكـان يجـري عليه طعامه صاعا من تمر بالصاع الأول وكساه شملتين وأمره أن يلزم المسجد ويرقد فيه بالليل فمكث بذلك ما شاء الله حتى كثر الغربـاء ممن يدخل في الإسلام من أهل الحاجة بالمدينـة وضـاق بهـم المـسجد فأوحى الله عز وجل إلى نبيه ﷺ أن طهـر مـسجدك وأخـرج مـن المسجد من يرقد فيه بالليل ومر بسد أبواب من كان له في مـسجدك باب إلا باب علي عليه السلام ومسكن فاطمـة ولا يمـرن فيـه جنـب ولا يرقد فيه غريب ، قال: فأمر رسـول الله ﷺ بـسد أبـوابهم إلا بـاب علي وأقر مسكن فاطمة عليها السلام على حاله.

قال: ثم إن رسول الله أمر أن يتخذ للمسلمين سـقيفة فعملـت لهم وهي الصفة ثم أمـر الغربـاء والمـساكين أن يظلـوا فيهـا نهـارهم وليلهم، فنزلوها واجتمعوا فيها فكـان رسـول الله ﷺ يتعاهـدهم بـالبر والتمـر والـشعير والزبيـب إذا كـان عنـده وكـان المـسلمون يتعاهدونهم ويرقون عليهم لرقة رسول الله ويصرفون صدقاتهم إليهم. فإن رسول الله ﷺ نظر إلى جويبر ذات يوم برحمة منه له ورقة عليـه فقال له: يا جويبر لو تزوجت امرأة فعففت بها فرجك وأعانتك على دنياك وآخرتك!

فقال له جويبر: يا رسول الله بأبي أنت وأمي من يرغب فيَّ؟ فوالله

ما من حسب ولا نسب ولا مال ولا جمال فأية امرأة ترغب فيّ؟

فقال له رسول الله ﷺ: يا جويبر إن الله قد وضع بالإسلام من كان في الجاهلية شريفا وشرف بالإسلام من كان في الجاهلية وضيعا وأعز بالإسلام من كان في الجاهلية ذليلا وأذهب بالإسلام ما كان من نخوة الجاهلية وتفاخرها بعشائرها وباسق أنسابها فالناس اليوم كلهم أبيضهم وأسودهم وقرشيهم وعربيهم وعجميهم من آدم وإن آدم خلقه الله من طين وإن أحب الناس إلى الله ﷻ يوم القيامة أطوعهم له وأتقاهم وما أعلم يا جويبر لأحد من المسلمين عليك اليوم فضلا إلا لمن كان أتقى لله منك وأطوع، ثم قال له: انطلق يا جويبر إلى زياد بن لبيد فإنه من أشرف بني بياضة حسبا فيهم فقل له: إني رسول رسول الله إليك وهو يقول لك: زوج جويبرا ابنتك الذلفاء[1]!

قال: فانطلق جويبر برسالة رسول الله ﷺ إلى زياد بن لبيد وهو في منزله وجماعة من قومه عنده فاستأذن فأعلم فأذن له فدخل وسلم عليه ثم قال: يا زياد بن لبيد إني رسول رسول الله إليك في حاجة لي فأبوح بها أم أسرها إليك؟

فقال له زياد: بل بح بها فإن ذلك شرف لي وفخر!

فقال له جويبر: إن رسول الله ﷺ يقول لك: زوج جويبرا ابنتك الذلفاء.

فقال له زياد: أرسول الله أرسلك إلي بهذا؟ فقال له: نعم ما كنت لأكذب على رسول الله!

فقال له زياد: إنا لا نزوج فتياتنا إلا أكفاءنا من الأنصار فانصرف يا جويبر حتى ألقى رسول الله فاخبره بعذري.

---

(١)قال الجوهري : الذلف صغر الانف واستواء الأرنبة.

فانصرف جويبر وهو يقول: والله ما بهذا نزل القرآن ولا بهذا ظهرت نبوة محمد ﷺ فسمعت مقالته الذلفاء بنت زياد وهي في خدرها فأرسلت إلى أبيها ادخل إلي فدخل إليها فقالت له: ما هذا الكلام الذي سمعته منك تحاور به جويبر؟ فقال لها: ذكر لي أن رسول الله ﷺ أرسله وقال: يقول لك رسول الله: زوج جويبرا ابنتك الذلفاء.

فقالت له: والله ما كان جويبر ليكذب على رسول الله بحضرته فابعث الآن رسولا يرد عليك جويبرا فبعث زياد رسولا فلحق جويبرا فقال له زياد: يا جويبر مرحبا بك اطمئن حتى أعود إليك ثم انطلق زياد إلى رسول الله ﷺ فقال له: بأبي أنت وامي إن جويبرا أتاني برسالتك وقال: إن رسول الله ﷺ يقول لك: زوج جويبرا ابنتك الذلفاء فلم ألن له بالقول ورأيت لقاءك ونحن لا نتزوج إلا أكفاءنا من الأنصار!

فقال له رسول الله ﷺ: يا زياد جويبر مؤمن و المؤمن كفو للمؤمنة والمسلم كفو للمسلمة فزوجه يا زياد ولا ترغب عنه، قال: فرجع زياد إلى منزله ودخل على ابنته فقال لها ما سمعه من رسول الله فقالت له: إنك إن عصيت رسول الله ﷺ كفرت فزوج جويبرا فخرج زياد فأخذ بيد جويبر ثم أخرجه إلى قومه فزوجه على سنة الله وسنة رسوله وضمن صداقه.

قال: فجهزها زياد وهيئوها ثم أرسلوا إلى جويبر فقالوا له: ألك منزل فنسوقها إليك، فقال: والله مالي من منزل، قال: فهيؤوها وهيؤوا لها منزلا وهيئوا فيه فراشا ومتاعا وكسوا جويبرا ثوبين وأدخلت الذلفاء في بيتها وأدخل جويبر عليها معتما فلما رآها نظر إلى بيت ومتاع وريح طيبة قام إلى زاوية البيت فلم يزل تاليا للقرآن راكعا وساجدا حتى طلع الفجر فلما سمع النداء خرج وخرجت زوجته إلى الصلاة فتوضأت وصلت الصبح فسُئلت هل مسّكِ؟

فقالت: ما زال تاليا للقرآن وراكعا وساجدا حتى سمع النداء فخرج فلما كانت الليلة الثانية فعل مثل ذلك وأخفوا ذلك من زياد فلما كان اليوم الثالث فعل مثل ذلك فاخبر بذلك أبوها فانطلق إلى رسول الله ﷺ فقال له: بأبي أنت وأمي يا رسول الله أمرتني بتزويج جويبر ولا والله ما كان من مناكحنا ولكن طاعتك أوجبت علي تزويجه!

فقال له النبي : فما الذي أنكرتم منه؟ قال: إنا هيأنا له بيتا ومتاعا وأدخلت ابنتي البيت وادخل معها معتما فما كلمها ولا نظر إليها ولا دنا منها بل قام إلى زاوية البيت فلم يزل تاليا للقرآن راكعا و ساجدا حتى سمع النداء، فخرج ثم فعل مثل ذلك في الليلة الثانية ومثل ذلك في الثالثة ولم يدن منها ولم يكلمها إلى أن جئتك وما نراه يريد النساء فانظر في أمرنا!

فانصرف زياد وبعث رسول الله ﷺ إلى جويبر فقال له: أما تقرب النساء؟ فقال له: جويبر: أو ما أنا بفحل بلى يا رسول الله إني لشبق لهم إلى النساء!

فقال له رسول الله: قد خُبرت بخلاف ما وصفت به نفسك قد ذكر لي أنهم هيئوا لك بيتا وفراشا ومتاعا وأدخلت عليك فتاة حسناء عطرة وأتيت معتما فلم تنظر إليها ولم تكلمها ولم تدن منها فما دهاك إذن؟

فقال له جويبر: يا رسول الله دخلت بيتا واسعا ورأيت فراشا ومتاعا و فتاة حسناء عطرة وذكرت حالي التي كنت عليها وغربتي وحاجتي ووضيعتي وكسوتي مع الغرباء والمساكين فأحببت إذ أولاني الله ذلك أن أشكره على ما أعطاني وأتقرب إليه بحقيقة الشكر فنهضت إلى جانب البيت فلم أزل في صلاتي تاليا للقرآن راكعا وساجدا أشكر الله حتى سمعت النداء فخرجت فلما أصبحت رأيت

أن أصوم ذلك اليوم ففعلت ذلك ثلاثة أيام ولياليها ورأيت ذلك في جنب ما أعطاني الله يسيرا ولكني سأرضيها و أرضيهم الليلة إن شاء الله فأرسل رسول الله ﷺ إلى زياد فأتاه فأعلمه ما قال جويبر فطابت أنفسهم قال: ووفى لها جويبر بما قال: ثم إن رسول الله ﷺ خرج في غزوة له ومعه جويبر فاستشهد رحمه الله تعالى فما كان في الأنصار أيم أنفق منها بعد جويبر[1].

لا ينحصر الجهاد في ساحات المعركة بل هناك جهاد في ساحة القيم وتطبيقها وهو الجهاد الأكبر، فإن تطبيق القيم على الذات من أصعب المهمات، وهو الذي يقصر عن إدراكه الكثيرون.

---

(١)الكافي ٥/ ٣٤٣.

المصادر

١. القرآن الكريم.

٢. ابن أبي الحديد المعتزلي، شرح نهج البلاغة، دار الكتب العربية، القاهرة.

٣. ابن إسحاق، سيرة ابن إسحاق.

٤. ابن الأثير: محمد بن محمد، أسد الغابة في معرفة الصحابة، انتشارات إسماعيليان، طهران.

٥. ابن حنبل: احمد، مسند الإمام احمد بن حنبل، الطبعة الأولى ١٩٩٨م، عالم الكتب، بيروت.

٦. ابن كثير، البداية والنهاية، دار إحياء التراث العربي، بيروت.

٧. ابن هشام: عبدالملك، سيرة ابن هشام، تحقيق محيي الدين عبدالحميد، مكتبة محمد علي صبيح وأولاده، مصر، ١٣٨٣هـ.

٨. الألوسي البغدادي: السيد محمد شكري، شرح الخريدة الغيبية.

٩. الحاكم النيسابوري: المستدرك على الصحيحين، دار الكتب العلمية، بيروت

١٠. شمس الدين: محمد مهدي، أنصار الحسين.

١١. الطبري: محمد بن جرير، تاريخ الأمم والملوك، مؤسسة الأعلمي، بيروت.

١٢. العلامة الأميني، الغدير، بيروت.

١٣. القمي: عباس، سفينة البحار، مكتبة السنائي، قم.

١٤. الكليني، الكافي، قم.
١٥. المامقاني: عبدالله، تنقيح المقال، المكتبة المرتضوية، النجف.
١٦. المجلسي: محمد باقر، بحار الأنوار، الطبعة الثانية ١٤٠٣هـ، مؤسسة الوفاء، بيروت.
١٧. المظفري: محمد الحسيني، الإمام الصادق عليه السلام، دار الزهراء، بيروت.
١٨. الموسوي: الشريف الرضي، نهج البلاغة، تحقيق الدكتور صبحي الصالح، الطبعة الأولى ١٩٦٧م، دار الكتاب اللبناني، بيروت.

المحتويات

للمؤلف

١. طلب العلم فريضة.
٢. الهجرة مستقبل أفضل.
٣. حجر بن عدي الثائر الشهيد.
٤. مفهوم التقية في الإسلام.
٥. عن الجهاد والثورة عند أهل البيت.
٦. بناء القادة في منهج أهل البيت.
٧. الحياة الشخصية عند أهل البيت.
٨. نظام الإدارة الدينية عند الشيعة الإمامية.
٩. التشكيك.. كيف واجهه أهل البيت.
١٠. رجال حول أهل البيت (جزءان).
١١. نساء حول أهل البيت.
١٢. من قضايا النهضة الحسينية (١ـ ٣).

لاقتراحاتكم وآرائكم يمكن الاتصال بالمؤلف
www.al-saif.net
fawzialsaif@hotmail.com